

الفصل الثالث

فترة صرع الإمارة

## ١ - في مهب الأحداث :

حكم في هذه الفترة من تاريخ الأندلس ، أربعة من أمراء بني أمية الأندلسيين ، عبد الرحمن الأوسط : ثم ابنه محمد ، ثم حفيده المنذر وعبد الله ابنا محمد<sup>(١)</sup> . وأهم ما تمتاز به تلك الفترة من الناحية السياسية ، هو الصراع في سبيل المحافظة على تلك الإمارة الأموية الناشئة ، التي تعرضت لعدد من الأحداث ، يأتي بعضها من الخارج حيناً ، وينبع بعضها من الداخل حيناً آخر . ولم تؤثر تلك الأحداث على الإمارة في سنها الأولى ، تلك السنين التي حكم فيها عبد الرحمن الأوسط ، والتي كانت أوقات ازدهار حقيقي لحكومة قرطبة ، ولكنها أوهنت الإمارة في سنها الأخيرة ، وخاصة أيام آخر الأمراء عبد الله بن محمد ، حتى لقد أوشكت في عهده على السقوط .

فقد قامت في عهد عبد الرحمن الأوسط<sup>(٢)</sup> بعض الفتن الداخلية ، كالفتنة التي شبت من جديد بين المضربة ، واليمنية في تدمير Tudmir ، واندلعت كذلك بعض الثورات المحلية ، كالثورة التي أشعلها المولدون في طلبطلة Toledo ، وظهرت بعض الحركات الدينية المفرقة ، مثل حركة الاستشهاد ، التي قام بها متعصبون من مسيحي الإسبان<sup>(٣)</sup> . ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتغلب على تلك الفتن ، وأن يحد من خطر

(١) حكم عبد الرحمن الأوسط من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨ هـ (٨٢٢ - ٨٥٢) م .

وحكم ابنه محمد من ٢٣٨ إلى ٢٧٣ هـ (٨٥٢ - ٨٨٦) م .

وحكم المنذر من ٢٧٣ إلى ٢٧٥ هـ (٨٨٦ - ٨٨٨) م .

وحكم عبد الله من ٢٧٥ إلى ٣٠٠ هـ (٨٨٨ - ٩١٢) م .

فتكون هذه الفترة من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٣٠٠ هـ (٨٢٢ - ٩١٢) م .

(٢) انظر صورة عهده في : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٢١ وما بعدها ،

وانظر كذلك : Levi : Espana musulmana, pp. 129 50 ff.

(٣) راجع في تلك الحركة : Levi : Espana musulmana, pp. 150 ff.

تلك الثورات والحركات ، بل استطاع أن يؤدب بجيوشه بعض الأقاليم المسيحية المعتدية ، وأن يحرز عليها عدداً من الانتصارات . وهكذا امتازت حكومة قرطبة في عهده بالهيبة ، وسعدت البلاد على أيامه بالأمن ، واستطاع بتأمين الحدود وسد الثغور والحد من الفتن ، أن يقيم حكومة قوية ، لها وزراؤها وحجباها وحكامها وعمالها وقضاها ، وغير هؤلاء ممن تقوم عليهم حكومة منظمة .

على أن عهد عبد الرحمن الأوسط ، قد شهد حدثاً خارجياً خطيراً كان من أبرز الأحداث في تلك السنين ، وهو هجوم « النورمان » على الأندلس <sup>(١)</sup> ، ذلك الهجوم الذي أشاعوا به القلق في كثير من المدن الأندلسية الغربية ، حيث سلبوا وقتلوا وارتكبوا كثيراً من أعمال القرصنة .

وقد أسرع عبد الرحمن الأوسط ، فأرسل جيوشه لنجدة تلك الجهات ، واستطاعت قواته أن توقف تقدم « النورمان » وتردهم على أعقابهم ، وتكبدتهم كثيراً من الخسائر في الرجال والسفن .

وفي عهد الأمير محمد <sup>(٢)</sup> ظهر بعض الخارجيين على قرطبة كبنى قسي في سرقة سطة ، وكابن مروان الجليقي في ماردة . وقد سارت جيوش الأمير إلى الثائرين لإخضاعهم ، وذهبت كذلك إلى بعض المعتدين من المسيحيين المتأخمين لرد عدوانهم .

---

= وراجع أيضاً كتاب العرب في إسبانيا ص ٧١ وما بعدها ، وهو ترجمة قام بها الأستاذ الجارم لكتاب المؤرخ الإنجليزي Stanley Lane-Poole .

وهذا المؤرخ من أشد الناس إنصافاً للمسلمين في تلك الحركة، ومن أشد الناس نقداً لتصرف المسيحيين فيها .  
(١) انظر في هجوم النورمان على الأندلس : البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٠ وما بعدها ، وتاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٣ وما بعدها ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩ .

وانظر : Levi : Espana musulmana, pp. 144 ff.

(٢) انظر تصوير عهده في : البيان المغرب ج ٢ ص ١٤١ وما بعدها .

وانظر أيضاً : Levi : PP. 183 ff.

وفي عهد محمد أيضاً أغار « النورمان » على الأندلس للمرة الثانية ، وقد هجموا هذه المرة من الجنوب والشرق بالإضافة إلى هجومهم من الغرب ، ولكن الجنود الأندلسيين استطاعوا أن يردوا هؤلاء « النورمان » إلى غير رجعة .

على أن أيام هذا الأمير قد شهدت ميلاد خطر جديد ككَلَّف الإمارة الأندلسية كثيراً من الجهد والرجال والأموال، وظل شوكة في جانب الحكومة القرطبية حتى أوائل الفترة التالية . هذا الخطر الجديد، هو عمر بن حفصون الذي اعتصم بجبل بوبستّر Bobastor<sup>(١)</sup> هو وكثير من المتمردين الإسبان الثائرين على حكومة قرطبة ، وأخذ يعتدى على بعض الأقاليم القريبة من حصنه في الجنوب ، ويشيع كثيراً من الفزع . ثم مات الأمير محمد وخطر ابن حفصون من الأخطار التي تصارعها الإمارة ولا تكاد تنتصر عليها . وكان المنذر<sup>(٢)</sup> بن محمد من كبار قواد أبيه ، فخلف أباه في إمارة قرطبة ، ووضع نصب عينيه القضاء على ابن حفصون ، إلا أن المنية أسرعته إليه قبل أن يحقق غايته . ويقال إنه مات في أثناء محاربته لهذا الثائر الخطر .

وخلف المنذر أخوه عبد الله<sup>(٣)</sup> . وكانت الإمارة قد أنهكها الصراع ، وتصلحت عليها كثير من الأحداث ، التي كان في مقدمتها في عهد الأمير عبد الله ، اتضاح حركتين مهددتين لوحدة الأندلس وللحكومة القرطبية . أما الحركة الأولى ، فهي الحركة العنصرية ، التي كان مظهرها تكامل العرب في بعض المناطق تحت قيادة زعيم منهم للوقوف في وجه المولدين ، الذين يتكثرون بدورهم تحت إمرة ثائر منهم للوقوف في وجه العرب . وقد كانت

(١) من الجبال التي تتخلل السهل الجنوبي قرب غرناطة .

(٢) انظر لتصور عهده : البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٠ وما بعدها والمصدر السابق لليثي بروفنسال .

(٣) انظر لتصور عهده : المقتبس لابن حيان ( الجزء الخاص بالأمير عبد الله . وقد نشره القس الإسباني ملشور أنطونيا . باريس سنة ١٩٣٧ ) .

وانظر كذلك : البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٢ وما بعدها .

وانظر من المراجع الأوربية : Levi Provençal, España musulmana, PP. 201 ff.

إشبيلية وغرناطة من مراكز هذه الحركة (١) .

أما الحركة الثانية ، فهي الحركة الانفصالية التي كان مظهرها محاولة بعض الأفراد المغامرين أو ذوى النفوذ ، الاستقلال ببعض أقاليم الأندلس ، مستغلاً الضعف الذى كانت تعانيه حكومة قرطبة حينئذ . ومن أمثلة تلك الحركة ، ما قام به بنو المهاجر فى سرقسطة ، وبنو ذى النون فى « شنت ياقب » (٢) .

وهكذا خاضت الإمارة الأموية فى تلك الفترة صراعاً كثيراً المعارك عديدة الأعداء ، وقد بدأت قوية مهيبة فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، ثم أخذت فى الضعف شيئاً فشيئاً حتى أشرفت فى أيام عبد الله على السقوط .

## ٢ - المجتمع يتحضر ويتحرر :

شاهدت السنوات الأولى من هذه الفترة ، حركات إصلاح وعوامل تقدم ، دفعت الأندلس أشواطاً فى طريق الرقى الاجتماعى والحضارى . وقد ساعد على ذلك ، هذا الهدوء النسبى الذى صاحب إمارة عبد الرحمن الأوسط ، كما ساعد عليه أيضاً تحمس الأمير الأموى للإصلاح ، وميله إلى النهوض بالأندلس ، حتى يتنافس بها فى المغرب خلافة العباسيين فى المشرق . كما ساعد عليه كذلك ازدهار اقتصاديات البلاد فى عهده ؛ فقد زاد دخل الأندلس إلى درجة من الرخاء كانت موضع حديث المؤرخين (٣) .

وقد كان من أهم عوامل التقدم الاجتماعى فى عهد عبد الرحمن الأوسط وبعده ،

(١) كان إبراهيم بن حجاج متزعم عرب أشبيلية . وقد استقل بها ، كما كان متزعم عرب غرناطة سعيد بن جردى وقد استقل بها أيضاً .

(٢) انظر : المقتبس لابن حيان ص ٩ وما بعدها .

(٣) انظر فى إصلاحاته وما قام به من تسيير وما كان فى عهده من رخاء : فتح الطيب للمقرئ ج ١ ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٣٦ . وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، والمغرب لابن سعيد ص ٤٦ ، ٤٧ .

قدوم موسيقى مشرقى على الأندلس ، أحدث فى مجتمعها انقلاباً هائلاً ، بما أدخله من عادات جديدة ، وبما أشاعه من تقاليد راقية ، وبما بعثه فى المجتمع الأندلسى من روح التأنى والتجمل . كل ذلك بالإضافة إلى إشاعة الموسيقى والغناء ، وتأسيس أول مدرسة أندلسية لهذين الفنين . هذا الرجل هو :

### زرياب <sup>(١)</sup> :

وقد كانت نشأته بالعراق ، كما كان فى الأصل من موالى المهدي العباسى وقد امتاز هذا الموسيقى منذ حداثته كتلميذ للموسيقى المشرق إسحق الموصلى ، صاحب المكانة المرموقة فى بلاط بغداد . وقد ظهر نبوغ زرياب وشاع خبر مهارته حتى خشيه أستاذه الموصلى وحمله على الهجرة ، فقصده تلك الأرض النائية ، أرض المغرب . وبعد إقامة يسيرة فى بلاط أمير القيروان ، دعاه الحكم الربضى إلى الأندلس ؛ لما بلغه من مهارته الفائقة فى فنه ، ولعله أراد أن ينافس به فى الأندلس ، إسحق الموصلى فى المشرق .

وأخذ زرياب طريقه إلى الأندلس ، ونزل فى ميناء الجزيرة الخضراء ، ولكنه علم فيها ب وفاة الأمير الحكم ، الذى كان قد استدعاه إلى الأندلس . وقبل أن يتسرب اليأس إلى قلبه ، جاءه رسول الأمير الجديد عبد الرحمن الأوسط ، يخبره أن الأمير متفقد لوعده أبيه ، طالب قدوم الموسيقى المشرق العظيم . فواصل زرياب رحلته إلى قرطبة ،

---

(١) اسمه عل بن نافع ، وكنيته أبو الحسن ، وزرياب لقبه ، وقد أطلق عليه لسمة بشرته ، فزرياب فى الأصل اسم لطائر أسود الريش . انظر ترجمته وما كان له من تأثير بالأندلس فى : المقرئ : نفع ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن دحية : المطرب ص ١٤٧ . وابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٨ ، ٦٩ .

وانظر كذلك ما قاله لى بروفنسال فى محاضراته عن « الشرق الإسلامى والحضارة العربية الأندلسية »

واستقبله الأمير عبد الرحمن بالترحاب والإجلال : ومنحه إقطاعاً ذا غلة وافرة ، وقربه من نفسه وجعله من خاصته<sup>(١)</sup> .

وكان زرياب قد جاوز الثلاثين حين وصل إلى الأندلس سنة ٨٢٢ م ، وبقي فيها حتى مات سنة ٨٥٧ م . وقد فرض نفسه على المجتمع الأندلسي ، وذلك بفضل فنه وذكائه وجميل عاداته ، وتشجيع الأمير ورجال الدولة له ، واستجابة أهل الأندلس لما كان يشيع فيهم من مستحدثات . فقد كان زرياب مثالا للأناقة ، فصار قدوة في الزي . وكان مثالا في التجديد لطرق المعيشة ، فوجدت تجديده رواجاً بين الأندلسيين . وهو الذي علمهم كيف يفرقون شعورهم في وسط الرأس ويعقصونها من الخلف ، حتى يظهر العنق ويبدو الجبين ، بعد أن كانوا يرسلون الشعر فوق الجبهة والأصداغ . وهو الذي استن لهم لبس الثياب البيضاء والملونة الخفيفة في الصيف ، والفراء والأردية الثقيلة في الشتاء . وهو الذي نقل إليهم كثيراً من طرق الطهي وتصفيف الموائد ومظاهر التحضر . أما من ناحية الفن فقد أنشأ أول مدرسة لتعليم الموسيقى والغناء ، وكان من دعائم هذه المدرسة أبناء زرياب وبناته وجواريه ، وكانوا جميعاً يحسنون الغناء ويجيدون الموسيقى . وقد خفف إلى مدرسة زرياب كثير من الأندلسيين ، فكان يأخذهم بمنهج دقيق في تعليم الموسيقى والغناء<sup>(٢)</sup> . واستطاع بسرعة أن يجعل للموسيقى الأندلسية طابعاً وشخصية وعشاقاً ، وأن يخلصها من التقاليد المدنية التي دخلت إلى الأندلس مع المدينيات ومن جاء بعدهن من فناني المشرق<sup>(٣)</sup> قبل زرياب . ولا تزال الموسيقى تدين لزرياب ، بالعود ذى الأوتار الخمسة الذي أحله محل العود ذى الأوتار الثلاثة ، الذي كان معروفاً من قبل .

ولقد كان من نتائج وفود زرياب وانتشار مستحدثاته الاجتماعية والفنية ، أن شاع

(١) اقرأ قصة تدل على مبلغ إعذاق هذا الأمير على زرياب ، في : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية

ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) انظر : نفع الطيب ج ٢ ص ١١٢ .

(٣) انظر : المصدر السابق ص ١١٣ .

في المجتمع الأندلسي حب الترف والتأنق والأخذ بمتع الحياة ، كما شاع كذلك الشغف بالموسيقى والتعلق بالغناء ، والتورط أحياناً في اللهو والمجون . وقد ساعد على ذلك تحرر بعض الأمراء ممن حكموا في تلك الفترة ، مثل عبد الرحمن الأوسط ، كما ساعد كذلك تحسن الأحوال الاقتصادية في أغلب الأحيان ، وانتشار الكروم ، والترخص في عصر الأنبيذة وشربها ، ثم كثرة القيان من مشرقيات وإسبانيات ، ووفرة الغلمان وخاصة من الصقالبة .

وليس من شك في أن المجتمع الأندلسي ، قد لاقى كثيراً من الضر في أواخر تلك الفترة . حين تألبت كثرة من الشرور على الإمارة الأموية ، في صراعها الميرير من أجل البقاء . وليس من شك أيضاً في أن هذا المجتمع أودى كثيراً من تلك الأحداث الداخلية والخارجية ، التي جرت بخاصة بعد أيام عبد الرحمن الأوسط . ولكن تلك الأحداث كانت في الوقت نفسه ، سبباً من أسباب الاحتكاك بين عناصر المجتمع ، وعاملاً من عوامل صهره ؛ ذلك أن الصراع بين الإمارة وجماعة ابن حفصون ، والصراع بين العرب والمولدين ، وما كان من حركات عنصرية وانفصالية ، قد أتاح لعناصر المجتمع الأندلسي احتكاكاً أكثر واتصالاً أشد .

ولإذا كانت السنوات الأخيرة من تلك الفترة . قد حرمت الأندلسيين كثيراً من الأمن والاستقرار ، فلأنها لم تغير من حقيقة ما وصلوا إليه في السنوات الأولى ، من التحضر ، والشغف بالموسيقى ، والتعلق بالغناء ؛ فقد أصبح كل ذلك من عاداتهم وطرق معيشتهم ، ولم يعد من المستطاع أن تغيرهم حتى تلك الاضطرابات والقلق ، التي صاحبت عهد الأمير عبد الله . بل ربما كانت تلك الاضطرابات وهذه القلاقل ، مما يدفع بعض النفوس إلى طلب الطمأنينة والبحث عن المسكن ، في مجلس غناء أو حلقة سماع أو جماعة ندمان<sup>(١)</sup> .

(١) راجع المقتبس لابن حيان ( الجزء الخاص بفترة الأمير عبد الله والذي نشره القس ملشور أنطونيا ) فإن فيه كثيراً مما يؤيد هذا .



## - وثبة الثقافة :

وثبتت الثقافة الأندلسية في تلك الفترة وثبة عظيمة ، واجتمع لها من الدوافع ما حفزها على هذه الوثبة . وقد كان من أهم تلك الدوافع ، تعلق بعض الأمراء بالمعرفة ومشاركتهم في ميادين الثقافة ؛ فقد كان عبد الرحمن الأوسط ، محباً لمطالعة كتب الطب والفلسفة ، كما كان مقرباً للعلماء مؤثراً للباحثين ، باعناً في طلب الكتب من يجلبها له من الأمصار . وقد أرسل عباس بن ناصح إلى المشرق ليجتهد له عن الكتب النافعة وينقلها إلى قرطبة<sup>(١)</sup> . كذلك كان الأمير عبد الله - برغم سوء الأحوال السياسية في عهده - محباً للعلم مشاركاً في الاشتغال به ، يؤثر العلماء ويقرب المثقفين . وقد قال ابن حيان عنه إنه « كان متصرفاً في فنون ، متحققاً منها ، عالماً بلسان العرب بصيراً بلغاتها وأيامها ، حافظاً للغريب والأخبار » . وقال كذلك عن مجلسه : « وكان مجلس الأمير عبد الله ، قبل الخلافة وبعدها ، أعمر مجالس الملوك بالفضائل ، وأنزهها من الرذائل ، وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعاليم ، فكانت كل فائدة تدور على الأفواه ، وتتناقل في الألسنة ، لا يستقر قرارها إلا في مجلس مذكراته ، ولا يفك عويصها إلا بين يديه »<sup>(٢)</sup> .

ولم يكن الأمراء الأمويون وحدهم الذين يشتغلون بالعلم ويقربون رجاله ، بل كان مثلهم في ذلك ، هؤلاء الرؤساء المستقلون ، الذين ظهروا بخاصة في عهد الأمير عبد الله ؛ مثل إبراهيم بن حجاج المستقل بإشبيلية<sup>(٣)</sup> .

وكان من دوافع الوثبة الثقافية في تلك الفترة كذلك ، ما حمله بعض المشاركة إلى

(١) انظر : نفع الطيب للمقرئ ج ١ ص ١٦٢ . وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٥٨ . وأخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ١٣٥ ، والمغرب لابن سعيد ص ٤٥ .

(٢) انظر : المقتبس ( الجزء الذي نشره القس ملشور أنطونيا ) ص ٣٤ .

(٣) انظر ما يرويه ابن حيان في المقتبس عن المناظرة التي جرت في مجلسه ص ١٣ ، ١٤ .

الأندلس من مؤلفات علمية وأدبية ، زيادة على ما حمله الأندلسيون أنفسهم . ومن أشهر نقلة المؤلفات المشرقية إلى الأندلس في تلك الفترة ، إبراهيم بن أحمد الشيباني ، المعروف بأبي اليسر الرياضي وهو من أهل بغداد ، وكان قد لقي الجاحظ والمبرد وثعلباً وابن قتيبة من الأدباء ، وأباً تمام والبحرئ ودعبلاً وابن الجهم من الشعراء ، وسعيد ابن حميد وسليمان بن وهب وأحمد بن طاهر من الكتاب ؛ ولقى غير هؤلاء وأولئك من أهل العلم والأدب ، ثم رحل إلى المغرب وسكن القيروان ، وكتب للأمير إبراهيم ابن الأغلب ، ثم لابنه عبد الله . وفد أيضاً على الأندلس في عهد الأمير محمد<sup>(١)</sup> .

كذلك كان من الأندلسيين الذين نقلوا الكثير من علم المشرق وأدبه في تلك الفترة ، محمد بن عبد السلام بن ثعلبة . وكان قد دخل البصرة ولقى بها أبا حاتم السجستاني والعباسي والرياشي وأبا إسحق الزياتي ، فأخذ عنهم رواية الأصمعي وغيره ، ودخل كذلك بغداد وأخذ عن علمائها ، ثم انقلب إلى قرطبة . وعن طريق هذا العالم دخل الأندلس كثير من كتب اللغة ودواوين الجاهليين<sup>(٢)</sup> .

وكان من نتائج هذه الوثبة الثقافية ظهور كثير من علماء الأندلس في شتى فروع الثقافة العربية والإسلامية ، وظهور طلائع العلماء الأندلسيين في العلوم العقلية والفلسفية والطبيعية . فقد ظهر بالإضافة إلى الكثير من علماء الدين واللغة ، أول فيلسوف أندلسي ، وهو محمد بن مسرة<sup>(٣)</sup> وكان أول أمره قد تلقى تعاليم الدين والحكمة على صديق لأبيه . ونشأ محباً للدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاماً . ومن العجيب أنه كان

(١) انظر : نفع الطيب المقرئ ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ج ٢ ص ١٦ - ١٧ ، وجذوة المقتبس للحميدى

ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣) انظر بعض ترجماته في : جذوة المقتبس للحميدى ص ٥٨ ، ٥٩ ، وتاريخ علماء الأندلس

لابن الفرضي ج ١ ص ٢١ ، ٤٢ . وانظر البحث القيم الذي كتبه عنه الأستاذ أسين بلاثيوس بعنوان :

Ibn Masarra y su escuela

في كتابه . Obras escogidas, vol.I.

في هذه السن المبكرة أستاذاً له تلاميذ يعلمهم ويعيش معهم في منزل يملكه في جبل قرطبة ، وكان يلقي تلاميذه نوعاً من الفلسفة ، يستره بأستار من الزهد . وقد أشاع الناس عنه أنه يشيع تعاليم الحادية تتنافى مع تعاليم الإسلام . وكان ذلك في عهد الأمير عبد الله ، حيث الظروف القاسية ، والسنوات المليئة بالقلق ، فخاف ابن مسرة على نفسه ، ورحل إلى المشرق ، وبعد فترة عاد إلى معتزله بقرطبة ، يواصل تعليم تلاميذه فلسفته في جو أكثر هدوءاً . وألف ابن مسرة كتباً ضاع معظمها ، وقد وصلنا اسمان لكتابين له ، هما : التبصرة والحروف . وقد استطاع المستشرق الإسباني أسين بلاثيوس Asin Palacios أن يجمع بعض أطراف مذهب ابن مسرة مما نقل من كتبه في طيات كتب الأندلسيين . وبين العالم الإسباني أن مذهب ابن مسرة كان يقوم على أفكار فيلون الإسكندري وأفلوطين وغيرهما ، كما أنه كان يعتمد على إبراز نظرية تقول بوجود مادة روحانية . تشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية . ويبدو أن ابن مسرة كان يروج لمذهبه تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية .

وقد ظهر كذلك في تلك الفترة ، أول مؤرخ أندلسي ، وهو عبد الملك بن حبيب<sup>(١)</sup> وكان قد درس أول الأمر في البيرة وقرطبة ، ثم رحل إلى المشرق ، وتردد على حلقات الدرس في مدنه ، وخاصة المدينة المنورة . وعاد بعد ذلك إلى بلاده ، فأدرك شهرة عظيمة ، حتى لقب بعلم الأندلس . وقد قيل في سعة علمه وتعدد معارفه : إنه كان يقسم طلبته في مسجد قرطبة إلى مجموعات ، يدرس لكل مجموعة علماً ، ولا يسمعون به في ذلك إلا كتبه وموطأ مالك . ومع ذلك لم يبق من كتبه الكثيرة إلا كتابه المسمى : التاريخ ، وهو لا يزال مخطوطاً في مكتبة أكسفورد . ويبدو أن بعض تلاميذه قد أضاف إلى الكتاب بعض الزيادات ، لأن الرجل قد مات قبل إمارة عبد الله ، ومع ذلك يصل ما كتب

(١) انظر في ترجمته : جنوة المقتبس للحميلي ص ٢٦٣ - ٢٦٥ . وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي ج ١ ص ٣١٢ - ٣١٥ .

في الكتاب إلى عهد هذا الأمير الأموي . ويشتمل كتاب عبد الملك ، على بعض الأساطير ، التي نسجت حول فتح المسلمين للأندلس . ويذهب المؤرخ الهولندي دوزي Dozy إلى أن ابن حبيب قد أخذ هذه الأساطير عن أساتذته المصريين<sup>(١)</sup> .

كذلك كان من مظاهر وثبة الأندلس الثقافية في تلك الفترة ، ظهور أوائل أطباء الأندلس ، مثل أحمد بن إياس ، ومحمد بن أبان<sup>(٢)</sup> ، وكانا أيام الأمير محمد . ثم ظهور أوائل الفلكيين والرياضيين ، مثل أبي عبيدة مسلم بن أحمد البلسني ، وكان يعنى بعلم الحساب والنجوم<sup>(٣)</sup> .

وليس من شك في أن ظهور رجل كعباس بن فرناس ، مما يعد من مظاهر الوثبة الثقافية في تلك الفترة ؛ فقد كان هذا الرجل من مفاخر الأندلس ، وربما لا نكون مبالغين إذا قلنا : إنه كان من مفاخر الفكر الإنساني عامة ، فهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة بالأندلس ، وهو أول مخترع للآلة المعروفة بالثقال لمعرفة الأوقات ، وهو من أوائل من حاولوا الطيران في التاريخ ، حيث صنع جناحين وركبهما على جانبيه ثم طار بهما حيناً ، لكنه وقع . وكان ابن فرناس إلى ذلك أديباً شاعراً<sup>(٤)</sup> .

#### ٤ - وثبة الأدب :

وقد وثب الأدب الأندلسي في تلك الفترة وثبة واضحة ، قربته كثيراً من نهضة شاملة سيحظى بها في الفترة التالية . وقد ساعدت على تلك الوثبة أمور ، أكثرها يرجع إلى التقدم

(١) انظر : Angel Gonzalez Palencia . Historta de la Literatura Arabigo-esbanola ., pp. 141 ff .

وانظر : تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة المصدر السابق ص ١٩٣ وما بعدها .

(٢) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ص ٧٨ . وانظر : طبقات الأطباء لابن أبي أصيمة

ج ٤ ص ٤٢ .

(٣) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ص ٦٤ ، وفتح الطيب للمقرئ ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٤) انظر بعض أخباره في : فتح الطيب للمقرئ ج ٢ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ . والبيان المغرب ج ٢ ص

الثقافى والاجتماعى الذى حظيت به الأندلس . حينذاك ، وأقلها يرجع إلى الوضع السياسى الذى كانت عليه البلاد فى تلك الفترة ، ذلك الوضع الذى كان من مظاهره الحركة العنصرية ، والحركة الانفصالية ، والاحتكاك الشديد بين عناصر الأندلس ، من عرب ومولدين ومستعربين . وفيما يلي تفصيل القول فى جنسى الأدب :

### أولاً : الشعر :

أول ما يلاحظ على الشعر الأندلسى فى تلك الفترة ، أنه لم يعد مقصوراً على ذلك الاتجاه المحافظ الذى عرفه من قبل ، وإنما قد اتسع لبعض الاتجاهات الجديدة ، التى وفد بعضها من المشرق وانبثق بعضها الآخر من الأندلس . كذلك يلاحظ أن الاتجاه المحافظ المعروف من قبل قد اتسعت ميادينه ، فعالج بعض ما قد جدّ فى حياة الأندلسيين تبعاً لظروفهم السياسية والاجتماعية التى أحاطت بهم فى تلك الفترة . وقد كانت نتيجة ذلك كله نمواً للشعر وازدهاراً له . وهذا بيان ذلك .

### ( أ ) معرفة الاتجاه المحدث :

ونعنى به هذا الاتجاه الذى سار فيه بالمشرق أبو نواس ومسلم بن الوليد وأبو العتاهية وأمثالهم من المجلدين ، والذى تزعمه أبو نواس ، حين ثار على الاتجاه التقليدى وندد بطريقته ، وراح يطرق أغراضاً جديدة ، بمنهج جديد وأسلوب محدث .

وكانت هذه الحركة التى تزعمها أبو نواس معاصرة لتلك الفترة التى نسوق عنها الحديث . ولما كانت الأندلس دائمة الصلة بالمشرق ، دائمة الأخذ عنه ، قد أخذت هذا الاتجاه الجليل فى الشعر ، حيث نُقل إليها فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وما لبث أن شاع بين أدباء الأندلس .

وكان ناقل هذا الاتجاه الشعري ، عباس بن ناصح<sup>(١)</sup> ، الشاعر الذى عرف فى أيام الحكم الربضى ، والذى امتد به الأجل إلى عهد عبد الرحمن الأوسط . وكان قد سافر إلى المشرق فالتقى فى العراق بأبى نواس وسمع شعره ، وعاد إلى الأندلس فأشاعه بين الأندلسيين . وما لبث بعض هؤلاء أن تمثلوه ، وأنتجوا ما يشبهه بل ما يفوقه فى بعض الأحيان . وبهذا ظهرت تلك الأشعار المحدثه Moderna التى أخذت اتجاهاً جديداً بجانب الاتجاه القديم .

ويعتبر هذا الاتجاه المحدث فى الاهتمام بأغراض شعرية لم تكن شائعة من قبل ؛ ثم فى الأسلوب الذى تعالج به هذه الأغراض وغيرها مما يتناوله الشعراء .

فمن حيث الأغراض . ظهرت الحمريات . كقول يحيى الغزال :

|                                                            |                                                          |
|------------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------|
| ولما رأيتُ الشَّرْبَ أَكْدَتُ <sup>(٢)</sup> سَمَاؤَهُم    | تَأْبَطْتُ زَيْقِي <sup>(٣)</sup> وَاحْتَسَبْتُ عَنَائِي |
| فَلَمَّا أَتَيْتُ الْحَانَ نَادَيْتُ رَبَّهُ               | فَهَبْ خَفِيفَ الرُّوحِ نَحْوِ نَدَائِي                  |
| قَلِيلَ هَجْوِ الْعَيْنِ إِلَّا تَعْلَةً                   | عَلَى وَجَلٍ مِنِّي وَمِنْ نَظَرَائِي                    |
| فَقُلْتُ أَذْقْنِيهَا فَلَمَّا أَذَاقَنِي                  | طَرَحْتُ إِلَيْهِ رَيْطِي <sup>(٤)</sup> وَرَدَائِي      |
| وَقُلْتُ أَعَرْنِي بِذِلَّةٍ <sup>(٥)</sup> أَسْتَرُ بِهَا | بَذَلْتُ لَهُ فِيهَا طَلَاقَ نَسَائِي                    |
| فَوَاللَّهِ مَا بَرَّتْ يَمِينِي وَلَا وَفَّتْ             | لَهُ غَيْرَ أَنِّي ضَامِنٌ بِوَفَائِي                    |
| وَأَبْتُ إِلَى صَحْبِي وَلَمْ أَكْ آيَا                    | فَكُلُّ يَفْسَدَنِي وَحَقٌّ فِدَائِي <sup>(٦)</sup>      |

(١) راجع ما كتبناه عنه فى ص ١١٩ وما بعدها .

(٢) أكدت : توقفت عن المطر .

(٣) الزق : وعاء الخمر .

(٤) الریطة : كل ثوب رقيق .

(٥) البذلة : ما لا يسان من الثياب .

(٦) وردت هذه الأبيات فى : المطرب لابن دحية ص ١٤٨ .

وظهر كذلك الغزل الشاذ ، وهو الغزل بالمذكر . ومنه قول شاعر اسمه مؤمن . يخاطب مغنياً اسمه منصور . ويتغزل في فتي يلتقب بابن القط :

قُولَا لمنصور : أبا نصرٍ بحرمة المضارب والنقر  
ألا حكمتَ اليوم لابن الذي لُقب بالقط على البدر  
لا والذي طافت قريش له بالبيت في أيامه العشر  
كأنما هاروت في طرفه إذا رنا ينث بالسحر<sup>(١)</sup>

وظهرت كذلك المجونيات ، كقول المطرف بن عبد الرحمن الأوسط :

أفنيْتُ عمري في الشر ب والوجوده السلاح  
لم أضيع أصيلاً ولا أطّلاع صباح  
أحبي الليالي سهداً في نشوة ومراح  
ولست أسمع ماذا يقول داعي الفلاح<sup>(٢)</sup>

وظهرت كذلك بواكير الطبيعيات ، كقول عبد الرحمن الأوسط ، وقد كتب به إلى صديقه الشاعر عبد الله بن الشمر :

ما تراه في اصطباح وعقود القطر تنثر  
ونسيم الروض يخننا ل على مسك وعنبر  
كلما حاول سبقاً فهو في الريحان يعثر  
لا تكن مهمالة واسد بق فما في البطء تعذر<sup>(٣)</sup>

(١) وردت هذه الأبيات في : انلقتبس لابن حيان ص ١٣٨ ( الجزء الذي نشره ملشور أنطونيا ).

(٢) وردت هذه الأبيات في : نفع الطيب ج ١ ص ٣٢٩ .

(٣) وردت هذه الأبيات في : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٥٠ ، ٥١ .

وظهرت كذلك الزهديات كقول الأمير عبد الله :

يا من يراوغه الأجلُ حَتَّامٌ يلهيك الأمل  
حاتم لا تخشى الردى وكأنه بك قد نزل  
أغفلت عن طلب النجاة ولا نجاة لمن غفل  
هيهات تشغلك المنى ولمّا يدوم لك الشغل  
فكان يومك لم يكن وكأن نعيمك لم يزل<sup>(١)</sup>

هذا ما يتعلق بالاتجاه المحدث من حيث الأغراض الجديدة التي بدأت تجذب الشعر الأندلسي ؛ أما من حيث الأسلوب الجديد ، الذي بدأ يتضح في الشعر السائر في هذا الاتجاه ؛ فيلاحظ - كما تؤكد النماذج السابقة - أنه أسلوب يميل إلى شيء من التفضيل ويتجه أحياناً إلى القص ، وتشيع فيه روح الدعابة والسخرية والتحرر إذا كان الموضوع لاهياً ، كما تشيع فيه روح المرارة والكآبة والتزمت إذا كان الموضوع جاداً . ثم هو غالباً أسلوب ترسم صوره من عناصر حضرية ، ونحلق أخيلته في آفاق غير آفاق البادية ، وتؤلف لغته من ألفاظ بسيطة واضحة حسنة الإيقاع ، وتميل موسيقاه إلى البحور القصيرة والقوافي الرقيقة .

### دواعي التجديد :

وكما كان للاتجاه المحافظ ما يبرر الأخذ به في الأندلس خلال الفترة السابقة ، كان لهذا الاتجاه المحدث ما يشجع على السير فيه خلال تلك الفترة التي نسوق عنها الحديث . فمعروف أن هذا الاتجاه في أصل نشأته بالشرق ، أثر من آثار تلك الحياة الجديدة التي عاشها الناس خلال النصف الأول من العصر العباسي الأول ، أي في تلك

(١) وردت هذه الأبيات في : البيان المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ٢٢٢ ، وفي : أخبار مجموعة ص ١٥٣ .



السنوات التي أخذ الناس فيها يفتحون عيونهم في دهشة على مستحدثات الحضارة ، وراحوا يعبون في نهم من طيبات الحياة ، ثم انطلقوا في كثير من التحرر وراء المتع المختلفة : من شراب وغناء وموسيقى ، وما يتبع ذلك من مجالس هو ومغامرات مجنون . وقد ارتاع بعضهم من هذا التحرر المورط في كثير من الآثام ، وكان من هؤلاء المرتاعين بعض المتورطين من قبل ، فأخذوا أنفسهم بالزهد ، وراحوا يبغضون في الدنيا ، وينفرون من المتع ، ويدعون إلى التزود للآخرة ، ويشيعون احتقار الحياة وتذكر الموت .

وهكذا كانت كل الموضوعات الشعرية المفضلة لدى الاتجاه المحدث ، تمثل الحياة الجديدة للمجتمع الجديد ، وتصور هذا المجتمع في نزقه حيناً ، وفي رشده حيناً آخر . وكان المجنون والزهد — برغم تناقضهما الظاهري — يرجعان إلى مصدر واحد هو تلك الحياة المتحررة اللاهية الصاخبة الجديدة ، التي عرفها المجتمع الإسلامي في النصف الأول من العصر العباسي الأول .

كذلك كان الأسلوب الشعري الجديد الذي أثره شعراء هذا الاتجاه المحدث ، أثراً من آثار تلك الحياة الجديدة ، التي كانت بمثابة رد الفعل للحياة البدوية القديمة .

هذا ما حدث في المشرق حيث نشأ هذا الاتجاه المحدث . أما في الأندلس ، فقد كانت الحياة في فترة صراع الإمارة تقارب تلك الحياة في العراق أيام نشأة هذا الاتجاه . فقد كان الأندلسيون في تلك السنوات ، يفتحون عيونهم على حياة جديدة مترفة ، كما كانوا ينعمون بكثير من التحرر في ظلال بعض الأمراء المتحررين مثل عبد الرحمن الأوسط . وبدأت تكثر بينهم مجالس الموسيقى والغناء بفضل ما جاء به زرياب من ألحان وآلات وقيان ، وما لقيه من تشجيع وما بذله من جهود . كما بدأت تكثر فيهم مجالس الشراب بسبب ما أتيح لهم من إنتاج الكروم وعصر الأنبذة وترخص في شربها . كذلك بدأت تعرف بينهم علاقات الحب الشاذ ، بسبب ما كثر بينهم من

غللمان صقالبه وغير صقالبه ، ثم لما أحاط بالعلاقات والتقاليد من كثير من التحرر وعدم التزمت .

وربما ساعد على هذا النحو من السلوك ما عانت حياة الأندلس في تلك الفترة من صراع زلزل القيم ودفع الناس إلى التعلق بمتع الحياة ، وقد أشرنا من قبل إلى بعض ألوان هذا الصراع الذى خاضته الأندلس في تلك السنين .

وكما أحدث هذا الاندفاع والتحرر رد فعل عند بعض المشاركة ؛ أحدث الشيء نفسه عند بعض الأندلسيين ، فأنكر بعضهم ذلك الإقبال على الدنيا ، وندد بالتعلق بمتعها ، وراح يذكر بالموت ويدعو إلى التزود للدار الآخرة . وقد كان من هؤلاء من بدأ حياته في التحرر واللهو والتعلق بمتع الحياة . مثل يحيى الغزال الذى سترجم له في هذا الفصل .

وهكذا بدأ الطريق في أرض الأندلس يفتح أمام هذا الاتجاه الشعرى المحدث ؛ فتلقاه بعض الشعراء بالإعجاب ؛ لأنه يعبر عن واقع حياتهم . ويصور في دقة نزعاتهم ؛ حين يتحررون فيلهون ، وحين يتزمتون فيتزهدون ؛ ثم لأن أسلوبه في جدته وتخصره ورقته أقرب إلى حياتهم الجديدة المتحضرة الرقيقة ، من هذا الأسلوب المحافظ القديم ، الذى يليق بسكان البادية .

فإذا كان الشعراء في الأندلس من قبل قد آثروا الاتجاه المحافظ لدواع من حياتهم وواقعهم ، ودوافع من قيمهم ومثلهم ، فقد أثر بعض الشعراء الآن الاتجاه المحدث لدواع أخرى تتصل بالحياة الجديدة والواقع الجديد ، ولدوافع أخرى ترتبط بالقيم التى تغيرت والمثل التى تبدلت . فلم تعد حياة هؤلاء الشعراء فى مجتمعهم هى تلك الحياة البسيطة القريبة من حياة البداوة ، ولم تعد مثلهم مستمدة من عالم الآباء والأجداد فى البادية . وإنما أصبحت حياتهم هى تلك الحياة الأندلسية المتحضرة المترفة ، التى عرفت

اللهو العايب والتزمت الزاهد ، كما صارت مثلهم مستمدة من هذا الواقع الجديد ، الذي يعيشونه هم بكل ما يروج فيه من حسيات ومعنويات .

### (ب) نمو الاتجاه القديم

وبرغم دخول الاتجاه المحدث إلى الأندلس وانتشاره بين بعض الأندلسيين في فترة صراع الإمامة ، قد ظل الاتجاه المحافظ قويًا ناميًا ، وظل كثير من الشعراء متمسكين به سائرين على تقاليده . بل إن بعض الشعراء الذين أجادوا النظم على طريقة المحدثين ، كانوا أحياناً يفضلون النظم على طريقة المحافظين .

ولعل السبب في ذلك أن الاتجاه المحافظ كان قد استقر في الأذواق وتمكن من ملكات الشعراء . ولعل السبب أن هذا الاتجاه كان أليق بالموضوعات الجادة ، لما اقترن بالاتجاه المحدث من الاتصال بالموضوعات اللاهية .

على أن نمو الاتجاه المحافظ في تلك الفترة كان في الكم . ولم يتجاوزه إلى الكيف ؛ فقد اتسعت موضوعاته وزاد نتاجه وتعدد شعراؤه ، ولكن أسلوبه بقي على ما كان عليه من قبل ، ولم يطرأ عليه تغير ذو شأن ، برغم تغير الحياة والأحياء ، وبرغم ظهور اتجاه جديد في الفن الشعري ، جدد الأسلوب في ألفاظه وتراكيبه وموسيقاه .

وقد كان من مظاهر نمو الاتجاه المحافظ في تلك الفترة توسيع ميادينه ، واتصاله بكثير من المظاهر الجادة للحياة الأندلسية في تلك السنين . ومن ذلك ما يلي .:

### مناصرة العنصرية

فقد كان لتلك الحركة العنصرية الناشئة بين العرب والمولدين سلاح من الشعر ، إذ وقف بعض الشعراء العرب الآباء إلى جانب المعسكر المنتصر للعروبة ، وراحوا يمجدون العرب ويفخرون بهم وينافحون عنهم ويدعون إلى التكتل للقضاء على أعدائهم ،

كما وقف بعض الشعراء الإسبان الأصول في صف المولدين المنافحين عن الإسبانية ، وأخذوا يجرحون العرب ويدعون إلى الخلاص منهم وكانت المعركة الشعرية تأخذ في الغالب شكل النقائص ، حيث ينقض كل فريق ما يقوله الفريق الآخر بشعر من وزنه وقافيته .

وقد تكون هذه الحركة متأثرة بحركة الشعوبية في المشرق ، ولكن طبيعة الحياة الأندلسية ، والظروف التي أحاطت بالأندلسيين من عرب ومولدين في تلك الفترة ، جعلت هذه الظاهرة ذات أصالة بعيدة عن مجرد التقليد لما كان في المشرق من مظاهر شعوبية .

١

ومن نماذج الشعر المناصر للعنصرية في الأندلس حينذاك ، قول شاعر مولد يلقب بالعبي ، في الهجوم على عرب البيرة :

منازلهم منهم قفار بلاقع تجارى السّفَى<sup>(١)</sup> فيها الرياح الزغازعُ  
وفي القلعة الحمراء تدير زيغهم ومنها عليهم تستدير الوقائع  
كما حصدت آباءهم في ضلالهم أَسْتَنَّا والمرهفات القواطع

وقد رد عليه الشاعر الأسدي شاعر العرب فقال :

منازلنا معمورة لا بلاقع وقلعتنا حصن من الضيم مانع  
وفيها لنا عز وتدير نصرة ومنها عليكم تستب الوقائع  
ألا فتأذنوا منا قريباً بوقعة تشيب لها ولدانكم والمراضع<sup>(٢)</sup>

ومن نماذج هذا الشعر المناصر للعنصرية كذلك قول العبي في قصيدة له عن العرب :

قد انقصت قناتهم وذُلُّوا وزُعزع ركنُ عزهم الأذلُّ<sup>(٣)</sup>

(١) السفى : التراب .

(٢) وردت الأبيات السابقة في المقتبس لابن حيان ص ٦٢ ، ( الجزء الذي نشره ملتشور أنطونيا ) .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٦٤ .

ثم قول بعض<sup>(١)</sup> الشعراء العرب في الرد عليه ، وفي تمجيد زعيم العرب بليلة ،  
المسمى سوار<sup>(٢)</sup> :

لِسَوَّارٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ سَيْفٌ      أَبَادُ ذَوَى الْعَدَاوَةِ فَاضْمَحَلُّوا  
لَقَدْ ذَلَّتْ رِقَابُهُمْ (عبيداً)<sup>(٣)</sup>      فَصَادَهُمْ شَدِيدُ الْبَأْسِ صَيْلٌ<sup>(٤)</sup>  
سَقَاهُمْ كَأْسَ حَتَفٍ بَعْدَ كَأْسٍ      بِهَا نَهَلَ الْعَبِيدُ مَعًا وَعَلَّوْا  
وَقَدْ رُفِعَتْ لِسَوَّارٍ قَنَاةٌ      لَهَا خَضَعَتْ رِقَابُهُمْ وَذَلُّوا  
قَتَلَتْ بِوَاحِدٍ سَوَّارٌ أَلْفًا      وَأَلْفُهُمْ بِوَاحِدَانَا يَتَقَلُّ<sup>(٥)</sup>  
فَأَكْثَرَ قَتْلَنَا لَهُمْ حَلَالٌ      بِمَا ارْتَكَبُوهُ ظُلْمًا وَاسْتَحَلُّوا  
فَأُورِدْنَا رِقَابَهُمْ سَيُوفًا      تَشَبَّ النَّارُ مِنْهَا إِذْ تُسَلُّ  
وَقَدْ سُفِّكَتْ دِمَاؤُهُمْ وَطَلَّتْ      وَلَيْسَ لَنَا دَمٌ يَوْمًا يَطْلُ  
رِوَاقُ الْمَجْدِ مَضْرُوبٌ عَلَيْنَا      مَنِيْعُ الْجَانِينِ فَمَا يَزَلُ  
سَمُونَا فَوْقَ هَامِ الْمَجْدِ قَدَمَا      وَعَرْشُ الْمَجْدِ فِيهِ لَنَا مَحَلُ  
وَرَثْنَا الْمَجْدَ عَنْ آبَاءِ صَدَقَ      وَارِثُكُمْ - بَنَى الْعَبْدَانُ - ذُلُّ  
وَأَخْضَعْنَا رِقَابَكُمْ فَذَلَتْ      فَلَيْسَتْ مَا حَيِّتُمْ تَسْتَقِلُّ<sup>(٥)</sup>

ومن نماذج الأشعار المتصلة بالحركة العنصرية كذلك ، قول الشاعر الأسدي ،  
يدعو العرب جميعاً إلى الوحدة واليقظة ، ولا يفرق بين عدنانى وقحطانى ، ويقرر أن

(١) قيل هو سعيد بن جوى ، وقيل هو يحيى بن أخى يحيى بن صقالة أول الثائرين بالدمعة العرية .  
انظر المقتبس ص ٦٦ .

(٢) هو زعيم عرب ليلة قبل سعيد بن جوى .

(٣) مكان هذه الكلمة غير واضح بالأصل ، وقد أثبتنا ما يتفق مع السياق .

(٤) الصل : الحية أو الداهية .

(٥) وردت هذه الأبيات فى المقتبس ص ٦٦ .

من أعظم أجماد العرب ودواعى سيادتهم كون النبی علیه الصلاة والسلام منهم ، وكون الخلفاء والمهاجرين والانتصار من آبائهم :

يا أيها العرب في [أقصى] <sup>(١)</sup> محلتهم  
 ما عيش عدنان دون الحى من يمن  
 إن السهام إذا ما فرقت كسرت  
 أنتم قليل ، كثير في غنائكم  
 ليس منكم نبى الله أكرم من  
 وصاحبه : أبو بكر خليفته  
 ومعرهاجروا في الله ربهم  
 قل للقبائل من هود ومن أدَد <sup>(٢)</sup>  
 ما إن تركت لكم نصحا متصح  
 أنتم نيام ومن يشاكم مهير  
 [ومن هم] <sup>(٣)</sup> يمن قد خانهم مضر  
 وإن تجمعن [يوما] <sup>(٤)</sup> ليس تنكسر  
 وغيركم قتل فيكم وإن كثروا  
 برا الإله ون جاءت به السور  
 وخدنه المرتضى من بعده عمر  
 والتابعون ومن آووا ون نصرُوا  
 تقبلوا النصح إذ قلناه أو فذروا  
 والنصح عند ذوى الألباب مدخر <sup>(٥)</sup>

### وصف المعارك الحربية :

فقد سجل الشعر في تلك الفترة بعض ما كان من معارك بين الأمراء الأمويين والخارجين عليهم ، ومجد ما أحرزه هؤلاء وقوادهم من انتصارات ، وصور الجيوش في زحفها المظفر ، وسخر من الأعداء في انهزامهم المهين . ومن أمثلة هذا الشعر قول عباس بن فرنام في حملات الأمير محمد :

(١) مكان هذه الكلمة غير واضح في الأصل ، ولقد أثبتنا ما يوافق السياق .

(٢) لعل الأصل يوافق ما أثبتناه هنا ، فالكلمة غير واضحة في الأصل .

(٣) قد أثبتنا ما يتفق مع السياق ، لأن الكلمة غير واضحة في الأصل .

(٤) أدد على وزن عمر : أبو قبيلة من العرب .

(٥) وردت هذه الأبيات في : المقتبس ص ٤ .

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف  
لتهوم الفلا عبّل القبائل ملتف<sup>(١)</sup>  
إذا أومضت فيه الصوارم خلقتها  
بروقاً تراءى في الحِمَام وتستخفى  
كأن ذرى الأعلام في مَسِيلانها  
قراقير<sup>(٢)</sup> في يَمّ عجزنَ عن الجدف  
وإن طَحَنَت أركانها كان قطبها  
حِجاً ملكٍ ندب شائلة عف  
سمى ختام الأنبياء محمد  
إذا وُصف الأملّك جَلّ عن الوصف  
إلى أن قال :

فما كان إلا أن رماهم ببعضها  
فولوا على أعقاب مهزولة كشف<sup>(٣)</sup>  
كأن مساعير الموالى عليهم  
شواهين جادت للفرانق بالنسف<sup>(٤)</sup>  
بنفسى تنانين<sup>(٥)</sup> الوغى حين جمعت  
إلى الجبل المشحون صفّاً على صف<sup>(٦)</sup>

#### التوجه إلى الرؤساء المنفصلين :

فقد خرج الشعر المدحى عن نطاق أمراء قرطبة ، واتجه إلى بعض هؤلاء الرؤساء المستقلين ببعض الجهات ؛ حيث كان بعض الشعراء يقصدونهم كما يقصد الأمراء الأمويون في قرطبة . وهكذا بدأت توضع أسس البلاطات الأدبية الإقليمية ، التي سيعلو شأنها فيما بعد ، وخاصة في عصر ملوك الطوائف .

ومن أمثلة هذا الشعر المتجه إلى الرؤساء المنفصلين عن حكومة قرطبة ، قول ابن عبد ربه في إبراهيم بن حجاج المستقل بإشبيلية :

(١) لهُوم : ملتهم ، والعبّل : الضخم .

(٢) القراقير : السفن الكبيرة .

(٣) الأكشف : من يهزم في الحرب .

(٤) الشواهين : جمع شاهين ، وهو طائر جارح . الفرانق : جمع غزنوق ، وهو طائر صغير .

(٥) التنانين : جمع تنين ، وهو حية عظيمة .

(٦) انظر هذه الأبيات في : البيان المغرب ج ٢ ص ١ وما بعدها .

ألا إنَّ إبراهيمَ لُجَّةٌ ساحل  
فأشبليَّةُ الزهراء تُزهى بمجده  
من الجود أُرست فوق لجة ساحل  
وقرَّ مؤنَّة الغراء ذات الفضائل  
إذا ما تحلَّتْ تلك من نور وجهه  
غدت هذه للناس في زى عاطل  
وإن حلَّ في هذى توحَّش هذه  
فتهدى برُسل نحوه ورسائل<sup>(١)</sup>

هذا وقد كان شعر الاتجاه المحافظ — كما تدل النماذج المتقدمة — مزيجاً من الجودة والرداءة ، ومن الفنيَّة والنظمية ؛ وذلك بسبب كثرة المتعلقين بقرض الشعر ، وتعدد الميادين التي يحول فيها القصيد ، واختلاف المزاويل لهذا الفن ، بين شاعر أصيل وناظم دعى . فنحن نجد بعض النماذج تصل إلى الغاية في الجودة ، وهي تلك النماذج التي أنتجها فنانون أخلصوا للفن ، على حين نجد نماذج أخرى دون المستوى الفني المرضي ، وهي تلك النماذج التي أنتجها أناس أعجلتهم المناسبات أو حركهم النفاق وحب الكسب .

### ( ج ) اختراع الاتجاه الشعبي (الموشحات)

أما الاتجاه الشعبي ، فقد نشأ في الأندلس أواخر تلك الفترة وبدأ يأخذ طريقه في الحياة الشعرية الأندلسية ، بجانب الاتجاهين الوافدين من المشرق . وقد عُرِف شعر هذا الاتجاه الشعبي باسم الموشحات .

ويصف الباحثون الموشحات بالشعبية ؛ لأنها في الواقع فن شعري نشأ في أوساط الشعب لإرضاء حاجة الشعب ، ولأنه كان يَستخدم في بعض فقراته اللغة العامية ، ويعتمد في تعابيرهِ أحياناً على أجزاء من أغنيات شعبية . ولأهمية هذا الاتجاه الشعري الذي نشأ في أواخر تلك الفترة ، وكان له أثر كبير في الغرب والشرق ، سنبسّط القول فيه بعض الشيء ، فنقول :

( ١ ) وردت هذه الأبيات في : المقتبس من ٤ .



## بناء الموشحة

الموشحة منظومة غنائية ، لا تسير في موسيقاها على المنهج التقليدي ، الملتزم لوحدة الوزن ورتابة القافية ، وإنما تعتمد على منهج تجديلي متحرر نوعاً ؛ بحيث يتغير الوزن وتعدد القافية ، ولكن مع التزام التقابل في الأجزاء المتماثلة .

فالموشحة تتألف غالباً من خمس فقرات ، تسمى كل فقرة بيتاً . والبيت في الموشحة ليس كالبيت في القصيدة ؛ لأن بيت الموشحة فقرة أو جزء من الموشحة يتألف من مجموعة أشطار ، لا من شطرين فقط كبيت القصيدة . وكل فقرة من فقرات الموشحة الخمس ينقسم إلى جزأين : الجزء الأول مجموعة أشطار تنتهي بقافية متحدة فيما بينها ومغايرة في الوقت نفسه للمجموعة التي تقابلها في فقرة أخرى من فقرات الموشحة . أما الجزء الثاني من جزئي بيت الموشحة ، فهو شطران - أو أكثر - تتحد فيهما القافية في كل الموشحة . والجزء الأول الذي تختلف فيه القافية من بيت إلى بيت يسمى غصناً ، والجزء الآخر الذي تتحد قافيته في كل الموشحة ، يسمى قفلاً<sup>(١)</sup> .

هذا ما يتعلق بالقافية ، ويلاحظ أن فيها حرية وتنوعاً من جانب ، والزاماً وتماثلاً من جانب آخر . أما الحرية والتنوع ففي الأغصان ، حيث تغاير قافية كل غصن قافية باقي الأغصان . وأما الالتزام والتماثل ففي الأقفال حيث يجب أن تتحد قوافيها في الموشحة كلها .

أما أوزان الموشحة ففيها كذلك حرية وتنوع يقابلهما التزام وتماثل . أما الحرية ففي جواز استخدام البحر الذي ستصاغ على وزنه الموشحة في عدة حالات من حالاته ، أي من حيث التمام والجزء والشرط ، أو بعبارة أوضح ، يجوز في الموشحة أن تكون بعض أشطارها من بحر على تفاعيله التامة ، وأن تكون بعض الأشطار الأخرى من نفس البحر ،

(١) هذه تسمية ابن سناء الملك في كتابه دار الطراز ، أما ابن خلدون في المقدمة فيسمى هذا الجزء شطراً .

ولكن على تفاعيله المشطورة أو المجزوة ، فتأتى بعض الأشرطة طويلة عديدة التفاعل ، وتأتى أخرى فى نفس الموشحة قصيرة قليلة التفاعل . بل إنه يجوز أن تأتى بعض الأشرطة من بحر والبعض الآخر من بحر ثان<sup>(١)</sup> .

وأما الالتزام والمائل ، فى وجوب أن يأتى كل جزء من أجزاء الموشحة المتماثلة ؛ على وزن متحد . والأجزاء المتماثلة هى : الأغصان مع الأغصان والأقفال مع الأقفال . فإذا جاء الغصن فى الفقرة الأولى على وزن معين ، يجب أن تأتى كل الأغصان على نفس الوزن . وإذا جاء القفل الأول على طريقة خاصة من حيث طول الأشرطة وقصرها من بحر ما ، يجب أن تأتى كل الأقفال على نفس الطريقة . ويلاحظ أن تلك الأقفال يجب أن توافق المطلع الذى يسبق عادة كل الفقرات ، وهذه الموافقة بين الأقفال والمطلع يجب أن تكون فى الوزن والقافية جميعاً .

وقد درج الباحثون على تسمية الأجزاء المختلفة للموشحة بأسماء اصطلاحية . وقد مضى بعض تلك الأسماء ، وهى : البيت للفقرة ، والغصن لمجموعة الأشرطة التى تتغير قوافيها من فقرة إلى أخرى ، والقفل للأشرطة التى تتحد قوافيها فى الموشحة كلها . وبقي أن نذكر أن القفل الأخير من الموشحة يسمى خرجة . وأن الموشح الذى ليس له مطلع يسمى الأقرع ، والذى يبدأ بمطلع يسمى التام<sup>(٢)</sup> .

ولعلنا بعد ما تقدم ندرك سر تسمية هذا النوع من النظم بالموشح أو الموشحة ؛ فالوشاح : حلية ذات خطين يسلك فى أحدهما اللؤلؤ ، وفى الآخر الجواهر ، أو هو جلد عريض مرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحتها . والثوب الموشح هو الثوب المزين . فالفكرة إذن هى فكرة التجميل المنوع المعتمد على التقابل . وهكذا الموشح أو الموشحة

(١) راجع الموشحات الواردة فى دار الطراز ، وقارن أوزانها . وراجع ديوان ابن سهل الإشبيل ، وفى موشحات دار الطراز وفى موشحات ابن سهل ما يؤكد هذه الظاهرة .  
(٢) انظر تلك الاصطلاحات فى : دار الطراز لابن سناء الملك .

أيضاً ؛ فهي تزدان بالقوافي المنوعة والأوزان المتعددة ، ولكن مع التقابل في أجزائها المِثَالَة .

وهذا نموذج لموشحة ، نسوقه لكي تتضح تلك الأجزاء التي تؤلف هذا البناء الشعري ، لا لنقدم شاهداً من موشحات تلك الفترة ، التي لا يوجد بين أيدي الدارسين اليوم شيء من موشحاتها . والموشحة لابن سهل الإشبيلي ، وهو من شعراء القرن السابع الهجري<sup>(١)</sup> ، وقد أوردنا موشحته بدلاً من تصوير بناء هذا النظم الأندلسي بالخطوط والرموز . يقول ابن سهل<sup>(٢)</sup> :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى      قلب صب حله عن مكس<sup>(٣)</sup>  
فهو في حر وخفق مثلما -      لعبت ريح الصبا بالقبس

• • •

يا بدوراً أطلعت يوم النوى      غُرراً تسلك في نهج الغسور  
ما لعيني وحدها ذنب الهوى      منكم الحسن ومن عيني النظر  
أجتني بالذات مكروه الجوى      والتذاذي من حبيبي بالفكر  
وإذا أشكوه وجدى بسما      كالربي والعارض المنبجس  
إذ يقيم القطر فيها مأتما      وهي من بهجتها في عرس

• • •

من إذا أملى عليه حرقي      طارحتني مقلتاه الدنفا<sup>(٤)</sup>  
تركت الحافظه من رمي      أثر النمل على صم الصفا<sup>(٥)</sup>

(١) انظر عنه بحثاً للمؤلف ، كتب بالإسبانية ، وعنوانه : El Poeta sevillano Ibrahim Ibn Sahl .

(٢) انظر هذه الموشحة في ديوان ابن سهل الذي قام المؤلف بتحقيقه وشرحه وضبطه .

(٣) المكس : ما يستتر فيه الظبي كالكناس .

(٤) الدنف : السقم والمرض .

(٥) الصفا : الحجارة الملساء .

وأنا أشكركه فيما بقي لست ألهاه على ما أتلفا  
وهو عندي عادل إن ظلما ونصيحى نطقه كالحرّس  
ليس لي في الأمر حكم بعد ما حلّ من نفسى محل النفس

...

غالبٌ لي غالب بالتؤده بأبى أفديه من جاف رقيق  
ما علمنا قبلَ ثغر نضّده أفعواناً<sup>(١)</sup> عُصرت منه رحيق  
أخذت عيناه منه العربده وفؤادى سكره ما إن يفيتق  
فاحمُ اللمة معسولُ اللمي ساحر الغنّج شهيّ اللّعس<sup>(٢)</sup>  
وجهه يتلو الضحى مبتسما وهو من إعراضه في عبس

...

أيها السائل عن جرّى عليه لي جزاء الذنب وهو المذنبُ  
أخذت شمس الضحى من وجنتيه مشرقاً للشمس فيه مغرب  
ذهبتُ دمعى أشواقى إليه وله خد بلحظى مُدّهَب  
يُسبِت الوردَ بغيرمى كلما لحظّته مقلّتى في الخُلّس  
ليت شعرى أى شيء حرّما ذاك الورد على المغترس

...

أنفدت دمعى نار بي ضرامٍ تلتظى في كل حين ما تشا  
هى في خديه ببرد وسلام وهى ضرّ وحريق في الحشا  
أتقيّ منه على حكم الغرام أسداً ورداً وأهواه رشاً<sup>(٣)</sup>

(١) الأفعوان : زهر .

(٢) الغنّج . الدل . والعس : كون الشفة توشك أن تكون سوداء لثمة احمرارها .

(٣) الأسد الورد : الجريء . والرشا : الظبي إذا قوى وشى مع أمه .

قلتُ لَمَّا أن تَبْدَى معلماً<sup>(١)</sup> وهو من الحَاظِه في حَرَمِ  
أيها الآخِذ قَلْبِي مَغْنَمًا اجعل الوصل مكان الخُمُسِ<sup>(٢)</sup>

### نشأة الموشحات :

والموشحات قد نشأت في الأندلس ، أواخر القرن الثالث الهجري ( التاسع الميلادي ) وكانت نشأتها في تلك الفترة التي حكم فيها الأمير عبد الله ، وفي هذه السنين التي ازدهرت فيها الموسيقى وشاع الغناء من جانب ، وقوى احتكاك العنصر العربي بالعنصر الإسباني من جانب آخر . فكانت نشأة الموشحات استجابة لحاجة فنية أولا ، ونتيجة لظاهرة اجتماعية ثانياً . أما كونها استجابة لحاجة فنية ، فيبانه أن الأندلسيين كانوا قد أولعوا بالموسيقى وكلفوا بالغناء ، منذ أن قدم عليها زرياب ، وأشاع فيهم فنه . والموسيقى والغناء إذا ازدهرا كان لازدهارهما تأثير في الشعر أى تأثير . وقد اتخذ هذا التأثير صورة خاصة في الحجاز والعراق حين ازدهر فيهما الغناء والموسيقى في العصر الأموي ثم العباسي . وكذلك اتخذ هذا التأثير صورة مغايرة في الأندلس حين ازدهر فيها الغناء والموسيقى في الفترة التي نسوق عنها الحديث . فيظهر أن الأندلسيين أحسوا بتخلف القصيدة الموحدة ، إزاء الألحان المتنوعة ، وشعروا بجمود الشعر في ماضيه التقليدي الصارم ، أمام النغم في حاضره التجديدي المرن . وأصبحت الحاجة ماسة إلى لون من الشعر جديد ، يواكب الموسيقى والغناء في تنوعهما واختلاف ألحانهما . ومن هنا ظهر هذا الفن الشعري الغنائي الذي تنوع فيه الأوزان وتتعدد القوافي ، والذي تعتبر الموسيقى أساساً من أسسه ؛ فهو ينظم ابتداءً للتلحين والغناء .

( ١ ) الفارس المعلم : من يتخذ علامة مميزة حتى لا يخطئ .

( ٢ ) المراد بالخمس هنا : خمس النغمة الذي يعطى للفقراء . من قوله تعالى . « واعلموا أنما غنمتم من

شئ فإن الله خمسُه » الآية .

وأما كون نشأة الموشحات قد جاءت نتيجة لظاهرة اجتماعية . فبيان أن العرب امتزجوا بالإسبان ، وألفوا شعباً جديداً فيه عروبة وفيه إسبانية ، وكان من مظاهر هذا الامتزاج ، أن عرف الشعب الأندلسي العامية اللاتينية Romance ، كما عرف العامية العربية ؛ أى أنه كان هناك ازدواج لغوي نتيجة للازدواج العنصري<sup>(١)</sup> .

وكان لابد أن ينشأ أدب يمثل تلك الثنائية اللغوية ، فكانت الموشحات . فن المقرر أن الموشحات كانت منذ نشأتها إلى ما بعد ذلك بقرون تنظم بالعربية الفصحى ، إلا الفقرة الأخيرة منها وهى الخرجة ، فقد كانت تعتمد على عامية الأندلس . ومعروف أن تلك العامية كانت هى عامية العربية المستخلصة لألفاظ من عامية اللاتينية . وفى ذلك يقول ابن بسام ، فى حديثه عن مخترع الموشحات إنه « كان يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويصنع عليه الموشحة »<sup>(٢)</sup> .

فكان الموشحات إذن لها جانبان : جانب موسيقى يتمثل فى تنويع الوزن والقافية ، وهذا قد جاء استجابة لحاجة الأندلس الفنية حين شاعت الموسيقى والغناء . وجانب لغوي ، يتمثل فى أن تكون الموشحة فصيحة فى فقراتها عامية فى خرجتها ، وهذا الجانب قد جاء نتيجة للثنائية اللغوية المسببة عن الثنائية العنصرية .

### مخترع الموشحات :

وقد كان مخترع الموشحات فى الأندلس شاعراً من شعراء فترة الأمير عبد الله ، اسمه مقدّم بن معافى القسبرى . وقد جاء فى بعض نسخ كتاب النخبة لابن بسام أن مخترع الموشحات اسمه محمد بن محمود . والمرجح أن مخترع هذا النوع الشعرى هو

(١) راجع الحديث الخاص باللفات فى الأندلس فى تمهيد هذا الكتاب .

(٢) انظر : الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ١ .

مقدم بن معافى ، وعلى ذلك أكثر الباحثين <sup>(١)</sup> . على أن ابن بسام لم يجزم حين ذكر هذا الأخير ، وإنما قال : « وأول من صنع هذه الموشحات بأفقتنا واخترع طريققتها — فيما بلغنى — محمد بن محمود القبرى الضرير » <sup>(٢)</sup> . ولعل كون الشاعرين من قبيرة <sup>(٣)</sup> جعل ابن بسام يضع اسماً محل اسم ؛ فكأنه قد بلغه أن الشاعر القبرى فلاناً قد اخترع الموشحات . فذكر اسم محمد بن محمود ونسى اسم مقدّم .

ولعل من تمام الحديث عن مخترع الموشحات أن نشير إلى أن بعض الباحثين قد فهم أن مخترع الموشحات هو الشاعر العباسى عبد الله بن المعتز ؛ والسبب فى هذا الفهم أن موشحة قد وردت فى الديوان المطبوع لهذا الشاعر العباسى . وقد كان ابن المعتز معاصراً لمقدّم بن معافى ، وليس بين أيدينا شيء من موشحات هذا الأندلسى ، على حين يحتوى ديوان ابن المعتز على موشحة ، فكل هذا قد أوهم أن ابن المعتز هو صاحب أول موشحة ، وأن المشرق هو مصدر هذا النوع الشعرى . والحق أن ابن المعتز لم يقل تلك الموشحة الواردة فى ديوانه ، وإنما هى لشاعر أندلسى وشاح ، هو ابن زهر الحفيد <sup>(٤)</sup> . وقد وردت هذه الموشحة منسوبة إلى هذا الأندلسى فى كثير من المصادر الموثوق بها مثل جيش التوشيح لابن الخطيب ، والمغرب لابن سعيد ، ومعجم

(١) من ذكروا اسم مقدم بن معافى كمخترع للموشحات : ابن خلدون فى المقدمة ص ٥٨٤ وقد ورد اسمه خطأ فى بعض طبعات المقدمة ، فجاء مثلاً : مقدم بن معافى الفريرى . ولكن مراجع أخرى تصحح اسمه ، كالمقتبس لابن حيان ص ٤٦ ونفع الطيب للمقرئ ج ٤ ص ١٩٥ وجذوة المقتبس للحملى ، ترجمة رقم ١٣٨٦ .

(٢) الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١ .

(٣) قبيرة : بلدة قرب قرطبة . وكان منها مقدم بن معافى ومحمد بن محمود ، انظر : جذوة المقتبس ، ترجمة رقم ٢٨٥ ، ١٣٨٦ .

(٤) انظر ترجمته فى ابن أبى ، أصيبية (عين الأنباء فى طبقات الأطباء (ج ٢ ص ٦٧ وما بعدها .

البلدان لياقوت وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة<sup>(١)</sup> . وهناك شيء آخر ينبغي نسبتها لابن المعتز ، وهو أن نظام تلك الموشحة وأسلوبها وروحها موافقة كلها لموشحات أخرى أثرت عن هذا الشاعر الأندلسي<sup>(٢)</sup> ، على حين لا يعرف لابن المعتز شيء من الموشحات التي ترجح نسبة هذا النص إليه . وما يؤيد ماتقدم ، أن أحداً من الذين كتبوا عن ابن المعتز أو ترجموا له لم يذكر أنه كان وشاحاً . وأخيراً لو كان ابن المعتز صاحب هذه الموشحة ، لشاع عنه في المشرق هذا الفن ، ولرأينا له ولغيره من شعراء المشرق نماذج من هذا اللون ، الذي كان يناسب مستحدثاتهم وما يميلون إليه من تجديد . فنحن لم نر للمشاركة موشحات ، ولم يذكر أحد منهم في الوشاحين ، إلا بعد أن اشتهر هذا الفن في الأندلس وكثر أعلامه ، وذلك بعد نحو ثلاثة قرون من نشأة الموشحات .

وهكذا ينتهي أن يكون المشرق منشأ هذا اللون الشعري ، بعد أن اتفنى كون ابن المعتز صاحب الموشحة الواردة خطأ في ديوانه المطبوع ، بفعل بعض الساهين أو المدلسين من النساخ .

وتلك هي الموشحة التي أوقعت بعض الباحثين في الخطأ :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

ونسديم همتُ في غرته

وشربت الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الزرق إليه واتكى وسقاني أربعاً في أربع

غصن بان مال من حيث استوى

(١) انظر المغرب لابن سيد ج ٢ ص ٣٦٧ - ٣٦٨ ، ومعجم الأدباء لياقوت ج ١٨ ص ٢١٩ ، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٧٢ .

(٢) أورد ابن أبي أصيبعة عدة موشحات مماثلة كلها لابن زهر . انظر صفحات ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ .



بات مَنْ يهواه من فرط الجوى  
 خافقَ الأحشاء موهون القوى  
 كلنا فكَّرَ في الين بكي ما له يبكي بما لم يقع  
 ليس لي صبر ولا لي جلدُ  
 يا لقوى عدلوا واجهدوا  
 أنكروا شكواي مما أجد  
 مثل حالى حقه أن يُشتكى كدُ اليأس وذل الطمع  
 ما لعيني عَشِيَتْ بالنظير  
 أنكرتُ بعدك ضوءَ القمر  
 وإذا ما شئتَ فاسمع خبري  
 شقيتُ عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معي  
 كبدٌ حرّى ودمع يَكِفُ  
 يعرف الذنب ولا يعترف  
 أيها المعرض عما أصف  
 قد نما حيك عندى وزكا لا يظن الحبُّ أنى مدعى<sup>(١)</sup>

### أساس الموشحات :

ولكن هل استوحى مُقدّم بن معاني مخترع الموشحات نموذجاً مشابهاً ، أو بنى  
 على أساس قديم حين اخترع موشحته الأولى ؟ لقد ثبت أن المشاركة قد عرفوا - قبل  
 الموشحات - لوناً من الشعر تعدد فيه القوافي ، أو تنظم فيه القصيدة على فقرات تختلف

(١) انظر هذه الموشحة في المصادر السابقة ، وانظر أيضاً : دار الطراز لابن سناء الملك ، تحقيق  
 جودت الركابي ص ٧٣ . وقد اختلفت بعض ألفاظها من مصدر إلى آخر . كما اختلف وضع بعض الأغصان .

قوافيها ، كالرباعيات والمسمطات . فهل تأثر مخترع الموشحات بشيء من ذلك ، فطورّه وبني عليه<sup>(١)</sup> ؟ يبدو أن هذا الاحتمال بعيد ؛ لأننا لانعرف للأندلسيين رباعيات ولا مسمطات في تلك الفترة من تاريخها . حتى نقطع ببناء الموشحات على هذا النوع من النظم .

وقد ثبت كذلك أن العناصر الإسبانية كانت تخالط العرب في المجتمع الأندلسي ، وأن لغة الإسبان « الرومانشي » كانت تصاحب اللغة العربية ، ومن المعقول أن يكون للإسبان فنههم ، وأن تكون لغتهم بعض الأغاني . فهل يمكن أن يقال : إن مؤلف الموشحات قد اعتمد على بعض الأغنيات « الرومانشية » حين نظم موشحته الأولى ؟ يبدو كذلك أن هذا لم يكن ؛ لأنه ليس بين أيدينا شيء من تلك الأغنيات ذات الأصل الروماني حتى نقارنها بالموشحات ونظمئن إلى أنها كانت الأساس .

وقد ذكر الأستاذ « ريبيرا Ribera » صاحب الفرض السابق ، احتمالاً آخر يقول : إن أكثر البيوت الأندلسية كانت تضم نساء من جليقية ، لأنهن عُرِفْنَ أكثر من غيرهن بالجمال وكثير من المزايا الأخرى ، وإن هؤلاء الجليقيات كن يغنين بلغتهن في الحفلات ، ويهددن أطفالهن في المنازل ، ويسرين عن أنفسهن في ساعات العمل . فمن الممكن أن تكون الموشحات الأولى قد تأثرت ببعض الأغنيات الجليقية القديمة<sup>(٢)</sup> . ولكننا نستبعد كذلك هذا الافتراض الذي ذكره المستشرق الإسباني ؛ لأنه ليس بين أيدي الباحثين كذلك شيء من أغنيات جليقية ، يمكن أن يُثبت قرابة بين تلك الأغاني والموشحات .

(١) يقول الأستاذ « هارتمان Hartman » إن فن الموشحات كان إحياء لفن التسميط (عن الزجل في الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني ص ٥) .

(٢) انظر البحث القيم الذي كتبه عن ابن قزمان الأستاذ : Julian Ribera في كتابه :

كذلك ثبت أنه كان لليهود المعاشين للمسلمين في الأندلس بعض الأناشيد الدينية مثل « البزمون Pizmon » وهذه الأناشيد يشبه بعضها الموشحات . فهل كانت تلك الأناشيد مصدروحي لمخترع الموشحات حين نظم محاولته الأولى ؟

نحن كذلك نستبعد هذا الرأي الذي قال به الأستاذ « ملباس فيليكروسا » Milias Villicrosa المستشرق الإسباني ، المتخصص في الدراسات العبرية <sup>(١)</sup> . نستبعده لأننا نستبعد أن يتأثر المسلمون الأندلسيون بشيء يهودى متصل بالدين ؛ فهم قد عرف عنهم التعصب الشديد ، والنفرة الواضحة مما يشوب العقيدة ، حتى كانوا ينفرون من الفلسفة ، بل من المذاهب الفقهية المخالفة لمذهبهم ، فكيف نعقل أنهم تأثروا ببعض الأناشيد اليهودية الدينية ؟ !

والذى يمكن الاطمئنان إليه : هو أن الموشحات قد بنيت على أغنيات أندلسية محلية <sup>(٢)</sup> واستوحت بعض أغاني الأندلسيين الشعبية ، التى لم يسجلها المؤرخون ؛ فالمعقول أن يكون للأندلسيين أغان شعبية كأي شعب له أغانيه ، والمعقول أن تكون هذه الأغاني متنوعة القافية . وقد نظمت باللغة العامية الأندلسية التى تبرز فيها العربية « بالرومانى » ، والمعقول أن مخترع الموشحات إنما أفاد من هذه الأغنيات الشعبية ؛ لأنه سيأخذ غالباً ألفاظاً عامية يجعلها مركز موشحته ، كما أخبرنا ابن بسام في حديثه عن نشأة الموشحات . والأغنيات هى المدد الأول لتلك الألفاظ ، وخاصة حين يكون الاقتباس لعمل مشابه . وهو الموشحات ذات النشأة الغنائية . ويؤيد هذا أن العادة جرت بين الوشاحين على أن يمهّدوا للخرجات بمثل قولهم : « غَنَّت » . وشبيه بهذا ما

(١) انظر كتابه : La poesia sagrada, pp. 27 ff.

(٢) انظر : الزجل في الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني ص ٢ وما بعدها . وانظر مقالاً له في المجلة العدد الثانى فبراير سنة ١٩٥٧ .

يُحصل في أيامنا، حين يعتمد مؤلف أغان حديث إلى بعض الأغنيات الشعبية القديمة التي لا يُعرف لها مؤلف ، فيأخذ بعض أجزائها ويجعله أساساً لأغنيته .

### تطور الموشحات :

وقد كانت فترة نشأة الموشحات ، كفترة نشأة أى فن ، من حيث مشاهدتها لأولى المحاولات التي يعنى عليها الزمن غالباً . ومن هنا ، ولبعد الزمن بتلك الفترة ، لم تبق لنا من هذه الموشحات الأولى التي نظمها مُقدّم وأمثاله أية نماذج . ولكننا نستطيع أن نتصورها موشحات بسيطة التركيب قليلة التعقيد ، تتخذ مجالها من الموضوعات الغنائية كالخمر والطبيعة والغزل ، وتكتب كلها باللغة العربية ، فيما سوى الخرجة ، التي تكتب باللغة الأندلسية الشعبية . كما كانت تُرضى بقالبها ولغتها وأغراضها حاجة الأندلسيين حينئذ ، وتعكس اختلاط عنصرهم وامتزاج لغتهم ، وشيوع الغناء والموسيقى بينهم .

وقد تطورت الموشحات بعد فترة نشأتها تطورات عديدة لم وكان من أهمها تطور أصابها في القرن الخامس الهجري ، أيام ملوك الطوائف . ثم تطور آخر بعد ذلك بقليل فرّع عنها ما يسمى بالزجل . حتى أصبح هذا الاتجاه الشعبي ممثلاً في لونين : لون الموشحات ، وقد صارت تكتب جميعاً باللغة الفصحى ، ولون الأرزجال ، وقد صارت تكتب جميعاً باللغة العامية .

وانتقل هذان اللونان من الأندلس إلى المشرق ، فكثُر فيه الوشاحون والزجالون . وعرفهما كذلك الأدب الأوربي ، فتأثر بهما شعراء جنوب فرنسا المسمون « التروبادور Trovadores » ، كما تأثر بهما كثيرون من الشعراء الإسبان الغنائيين . وانتقل التأثير إلى الشعر الإيطالي ممثلاً في عدة أنواع ، مثل النوع الـ « لاودس Laudes » والنوع الغنائي المسمى « بالاتا Ballata » .

وقبل أن نختم حديث الموشحات ، نعرض نموذجاً يتضح معه ما سبق أن ذكرناه

من اشتمال الخرجات كثيراً على ألفاظ من عامية الأندلس التي تبرز فيها العربية « بالرومانشية » .

يقول بعض الأندلسيين <sup>(١)</sup> :

لحظاتٌ بابلِيَّةٌ متَّعت قلبي عشقا  
ولمَّيْ ثغرٌ دفلَجٌ لائمي منه موئى

... .

بأبى لو رق قلبه ساكن مثواه قلبي  
قلما يأمن سِرْبُهُ أو يرى روعة سربى  
حَسْبُ عذالى وحسبه فأنا قد ضاع حسبي  
هذه يا عاذليَّة من سمات الحب حقا  
زفرات تنوهج وهى فى دمعى غرقى

ثم يمضى الشاعر فى ذكر أغصان موشحته وأقفاها ، حتى يختتمها بهذه الأقطار :

أَلْبُ دِيهْ إِشْتِ دِيَّةُ دِيْ ذَا الْعَنْصَرِ حَقًّا  
بِشْتِيرِيْ مُوْ أَلْمَدْبَجْ وَنَشَقْ الرَّمَحْ شَقًّا

فهذا الختام الذى ختمت به الموشحة مزيج من ألفاظ عربية وأخرى « رومانشية » والفقرة الأولى معناها : « هذا اليوم يوم فجرى » أى مشرق . فالكلمة الأولى منها وهى كلمة « ألب » من الكلمة الإسبانية alba بمعنى فجر ، والكلمة الثانية وهى « ديه » معناها : يوم ، وهى فى الإسبانية dia ، والكلمة الثالثة وهى « إشت » معناها : هذا . وهى فى الإسبانية este . أما الفقرة الثانية ، فعناها « يوم العنصرة حقاً » ، والعنصرة عيد من أعياد الأندلسيين . والكلمة الأولى وهى « دى » معناها : يوم ، ويبدو أنها كانت تنطق « ديه »

(١) هو أبو بكر بن بَقِ المتوفى سنة ٥٤٥ هـ وكان من أعلام الوشاحين فى عهد المرابطين .

و « دى » . . وأما الفقرة الثالثة ، فعناها « سأل بس مدبجى » . والكلمة الأولى وهى « بشرى » هى التى صارت فى الإسبانية Vestiré أى سأل بس . والكلمة الثانية وهى « مو » هى ضمير الملك للمتكلم المفرد المذكور ، وقد صارت فى الإسبانية mi أو Mio . وأما الفقرة الأخيرة فهى عربية كلها . وعلى ذلك يكون معنى هذا الختام بجملته : هذا اليوم يوم فجرى ، إنه يوم عيد العنصرة . سوف ألبس ثوبى المزين . وأشق الرمح شقاً<sup>(١)</sup> .

### ( د ) الشعراء :

وقد عرفت الأندلس فى تلك الفترة عدداً وفيراً ممن يقولون الشعر ، وقد كان من هؤلاء بقية باقية من شعراء الفترة السابقة ، كعباس بن ناصح ، وحسانة التميمية ؛ كما كان منهم من امتد به الأجل إلى الفترة اللاحقة ، مثل ابن عبد ربه ، ومقدم بن معافى . ومن اشتهر فى عهد عبد الرحمن الأوسط : ابن الشَّمر ، وابن قَرْلمان ، والغَزَّال . ومن عرف فى عهد الأمير محمد : عباس بن فرناس ، والعَتَّيْ . ومن ذكر فى عهد المنذر وعبد الله : ابن عبد ربه ، والقلفاظ ، وعبد يس بن محمود وابن قَلْزم . وكان كثير من العلماء غير المتفرضين للشعر يقرضه أحياناً ، مثل : عبد الملك بن حبيب ، الذى عرف بالتاريخ ، وسعيد بن عبد ربه ، الذى عرف بالطب ، وابن فرناس الذى عرف بالطبيعات . هذا ، ولم يكن جميع الشعراء من ذوى الأصول العربية ؛ بل كان منهم مولدون ، كالعَبْلِيّ الذى أوردنا له بعض الشعر ، بل لم يكن قول الشعر العربى مقصوراً على المسلمين من سكان الأندلس ، وإنما كان يقوله كذلك المسيحيون المستعربون كما تُقرر ذلك شكوى القس ألقارو القرطبى ، التى سلفت فى غير هذا المكان<sup>(٢)</sup> .

( ١ ) نشر الموشحة السابقة ودرس خرجتها وحل غوامضها الأستاذ جارتيا جويث فى مقال له عن الموشحات فى مجلة الأندلس سنة ١٩٥٤ ، وهو ينقل عن مخطوط اسمه عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس لابن بشرى الغرناطى ، وهذا المخطوط ملك الأستاذ كولان المستشرق الفرنسى .

( ٢ ) انظر ما كتب عن اللغات فى الأندلس فى تمهيد هذا الكتاب .

وليس من المستطاع الترجمة في هذا المقام لكل شعراء تلك الفترة ولا لأكثرهم ولا لأجودهم وحسبنا أن نترجم لشاعرين يمثل أحدهما الاتجاه المحدث، ويمثل الآخر التقليدي:

### يحيى الغزال<sup>(١)</sup> :

اسمه يحيى بن حكيم، ويلقب بالغزال لوسامته وظرفه. وأصله من جيبان، وينسب إلى أسرة تنتمي إلى بكر بن وائل. وقد ولد الغزال سنة ١٥٦ هـ. ونشأ نشأة علمية أدبية غير أن الشعر غلب عليه فاشتهر به.

وقد كان للغزال من المواهب الخلقية والخلقية، ما جعله يُختار لبعض الأعمال الكبيرة في إمارة قرطبة في عهد عبد الرحمن الأوسط. لكن طبعه المتحرر كان يصل أحياناً إلى درجة الاستهتار، فيجر عليه كثيراً من الشر، ويقف دون بلوغه أسمى المناصب التي كان بها جديراً. حَدَّثَ أن ولاء الأمير عبد الرحمن قبض الأعرار<sup>(٢)</sup>، واختزانها فتصادف أن قل الطعام في تلك السنة. وارتفع سعر الحاصلات، فباع الغزال ما اختزنه من حاصلات كان قد جباها كأعرار للدولة، واستبدل بها نقوداً. فلما علم بذلك الأمير، غضب وقال: إننا نعد ذلك لنفقات الجند والحاجة عند الجهد. وأمر بأن يؤخذ من الغزال الثمن الذي باع به الحاصلات، وكانت الحاصلات قد كثرت حينئذ ورخصت أسعارها، فأبى الغزال أن يدفع ثمن الحاصلات التي باعها، وقال: إنما أشتري لكم من الطعام عدد ما بيعت من الأمداد. فلما علم الأمير بذلك أمر بسجنه

(١) انظر ترجمته وبعض أخباره في: المطرب لابن دحية ص ١٣٣ - ١٥٦، ونفع الطيب للمقرى ج ١ ص ٤٤١ - ٤٤٦، وجذوة المقتبس للحميدي ترجمة رقم ٨٨٧، وبنية الملتصق للصبى ترجمة رقم ١٤٦٧، والمغرب لابن سعيد ج ٢ ص ٥٧، ٥٨، والمقتبس لابن حيان (الجزء الذي يتناول عصرى الحكم وعبد الرحمن الأوسط، وهو مخطوط كان عند الأستاذ ليثي بروفنسال).

(٢) نوع من الضرائب المفروضة على الأرض.

وقد كتب الشاعر من محبته في قرطبة قصيدة جميلة ، ضمنها تبرير تصرفه ، وبدأها بالغزل فقال :

بعضَ تصاييكَ على زينبِ      لا خَيْرَ في الصبوة للأشيبِ  
أبعدَ خمسين تقضيَّتها      وافية تصبو إلى الربِّ ربِّ (١)

ثم انتقل إلى مدح الأمير قائلاً ،

من مُبلغٍ عنى إمام الهُدَى      الوارث المجد أبناً عن أب  
أنى إذا أطنب مُدَّاحُه      قصدت في القول فلم أطنبِ  
لا فكَّ عنى الله إن لم تكن      أذكرتْنا من عُمرَ الطيبِ  
وأصبح المشرقُ من شوقه      إليك قد حنَّ إلى المغربِ  
منبره يهتفُ من وجده      إليك بالسهل وبالمرحبِ  
أطربه الوقت الذى قد دنا      وكان من قبلك لم يطربِ  
هفا به الوجد فلو منبر      طار لوافى خطفة (٢) الكوكبِ  
إلى جميل الوجه ذى هبة      ليست لحامى الغاية المغضبِ  
لا يُمكنُ الناظرُ من رؤية      إلا التماح الخائف المذنبِ

وانتهى بعد ذلك إلى المشكلة فقال :

إن تُردَّ المالَ فإني امرؤٌ      لم أجمع المالَ ولم أكسبِ  
إذا أخذتَ الحق منى فلا      تلمس الريح ولا ترغبِ  
قد أحسن الله إلينا معاً      إن كان رأس المال لم يذهب (٣)

(١) الربوب : يقر الوحش .

(٢) الخطفة : السرعة .

(٣) انظر هذه الأبيات وسبب قولها في : المطرب لابن دحية ص ١٣٣ - ١٣٦ .



وقد عفا الأمير عنه بعد سماعه هذا الشعر ، وأسند إليه بعد ذلك مهام جليلة ، كان من أخطرها إيفاده في سفارة إلى إمبراطور بيزنطة المسمى « ثوفلس Theophile » الذي كان قد أرسل سفارة إلى الأمير الأموي ، يعرض معها صداقته ويطلب من عبد الرحمن مودته ، ويبدى رغبة في عقد معاهدة بين القسطنطينية وقرطبة <sup>(١)</sup> .

وقد قام الغزال بسفارة قرطبة لدى إمبراطور البيزنطيين <sup>(٢)</sup> خير قيام ، وكان يصحبه في تلك المهمة السياسية أندلسي عالم ، يسمى يحيى بن حبيب ، ولكن شخصية الغزال القوية جعلته كل شيء في تلك السفارة التي خلفت شعراً من خير ماجادات به قريحة الشاعر . فقد هاج البحر ، والغزال وصاحبه يركبان السفينة في اتجاه القسطنطينية ، وأحلق بهما الخطر ، فاشتدت العاصفة وعلا الموج ، فقال الغزال في ذلك :

قال لي يحيى وصيرنا بين موج كالجبال  
وتولتنا رياح من دبور وشمال  
شقت القلعين وانبتت عراً تلك الجبال  
وتمطى ملك الموت إلينا عن حيال  
فرأينا الموت رأى الهمين حالا بعد حال  
لم يكن للقوم فينا يا رفيق رأس مال <sup>(٣)</sup>

(١) انظر تحقيق هاتين السفارتين في كتاب . الإسلام في المغرب والأندلس ، للأستاذ ليلى بروفنسال ص ٩٥ - ١١٤ (والكتاب مترجم عن الفرنسية بأقلام الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي والدكتور لطفى عبد البديع) .

(٢) ذكر ابن دحية في المطرب أن سفارة الغزال كانت إلى ملك المجر ، أي « النورمان » وذكر نفس الأحداث والأشعار التي أوردها ابن حيان في المقتبس في حديثه عن رحلة الغزال إلى إمبراطور القسطنطينية . وقد أثبت الأستاذ ليلى بروفنسال في كتابه السابق « أن الرحلة لم تكن إلى ملك المجر ، وإنما كانت إلى إمبراطور القسطنطينية ، وأن ابن دحية قد اعتمد على عناصر قصصية خيالية ولم يعتمد على حقائق تاريخية » . على أنه لا يبعد أن يكون الغزال قد قام برحلة إلى القسطنطينية ، وبأخرى إلى بلاد النورمان ، الذين كانوا قد هاجموا الأندلس في أيامه ، والذين ساهم بعض المؤرخين بالمجوس .

(٣) انظر هذه الأبيات في : المطرب ص ١٣٩ ، ونفع الطيب ج ١ ص ٤٤٤ .

ثم نجا الغزال وصاحبه ، ووصلا إلى حيث أرسل ، ونهيا الإمبراطور البيزنطى لاستقبال سفير عبد الرحمن الأوسط ، وأخبر الغزال بتقاليد بلاط بيزنطة ، التى تقضى بأن يدخل الزائر على الإمبراطور ساجداً ؛ فرفض الغزال ذلك ، واشترط ألا يخرج هو وصاحبه عن شيء من سنتهما ، فوافق على ذلك ، لكن المسئولين فى بلاط القسطنطينية تحايلا ، فجعلوا المدخل المؤدى إلى الإمبراطور منخفضاً حتى لا يدخله داخل إلا راکعاً ، فلما جاء الغزال للدخول على الإمبراطور ورأى الباب كذلك ؛ جلس على أليتيه ومد قدميه وزحف حتى دخل من الباب ثم استوى قائماً ، ثم حيا الإمبراطور بكلمة ترجمت له ، فأعجب بها ، وقال : هذا حكيم من حكماء القوم ودا هية من دهاتهم ، أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه .

قالوا : ولم يلبث الغزال أن ظفر بإعجاب الإمبراطورة «ثيودورا Theodora» البيزنطية ؛ فقد كان يوماً يجلس مع الإمبراطور ، فدخلت زوجته وعليها زينتها ، وهى تبدو كالشمس بهاء طلعة ؛ فجعل الغزال يتأملها ولا يميل طرفه عنها ، وجعل الملك يحدثه ، وهو لا يلتفت إلى مايقول ، وإنما هو منصرف بكل كيانه إلى الملكة الجميلة ، فأنكر عليه الملك ذلك ، وطلب من الترجمان أن يسأله عن تصرفه غير اللائق ، فأجاب الغزال قائلاً للترجمان : «عرفه أنى قد بهرنى من حسن هذه الملكة ماقطعنى عن حديثه ؛ فلانى لم أر قط مثلاً» وأخذ فى وصفها والتعجب من جمالها . فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده ، وسرت الملكة بقوله .

وقد أمرت له بهدية فامتنع عن قبولها . ولما طلبت من ترجمانها سؤاله عن سبب الرفض ، أجاب الغزال : إن صلتها لجزيلة ، وإن الأخذ منها لتشريف . . ولكن كفى من الصلة نظرى إليها وإقبالها على . . . فقالت لترجمانها : متى أحبب أن يأتينى زائراً فلا يحجب<sup>(١)</sup> .

(١) انظر : المطرب لابن دحية ص ١٤٢-١٤٣ ، والإسلام فى المغرب والأندلس ص ١٠٧-١٠٨ .

وهكذا كسب الغزال مودة الملكة ، كما اكتسب إعجاب الملك ، وظل على صلة حسنة بها طيلة مقامه بالقسطنطينية .

وقد خلقت تلك الصلة بين الغزال والإمبراطورة « ثيودورا » بعض الشعر الغزلي المزوج بالدعابة .

سألت الإمبراطورة الغزال مرة عن سنه - وكان قد أصبح في حدود الخمسين - فأجاب مداعباً : عشرون سنة ؟ فقالت للترجمان : كيف يكون له هذا الشيب وهو ابن عشرين ، فقال الغزال للترجمان : ألم تر قط مُهراً يولد وهو أشهب ؟ فلما نقلت إجابته إلى الإمبراطورة أعجبت برده . وفي هذا يقول الغزال :

|                                            |                                              |
|--------------------------------------------|----------------------------------------------|
| كُفِّتَ يا قلبي هوى متعباً                 | غالبت منه الضيغم الأغلب                      |
| إني تعلقت مجوسية                           | تأبى لشمس الحسن أن تغرباً                    |
| أقصى بلاد الله لي حيث لا                   | يلقى إليها ذاهب مذهباً                       |
| يا تود <sup>(١)</sup> يا رُودَ الشباب التي | تُطلع من أزرارها الكوكبا                     |
| يابأبى الشخص الذي لا أرى                   | أحلى على قلبي ولا أعذباً                     |
| إن قلت يوماً إن عيني رأت                   | مشبهه لم أعد أن أكذباً                       |
| قالت : أرى فؤديه <sup>(٢)</sup> قد نوراً   | دعابةً توجب أن أدعبا                         |
| قلت لها : يا بأبى إنه                      | قد يُتَّجَّح المهر كذا أشهباً <sup>(٣)</sup> |
| فاستضحكت عجباً بقولي لها                   | وإنما قلت لكي تعجباً <sup>(٤)</sup>          |

(١) جاء هذا الاسم في المطرب (نود) ولكنه جاء في النسخ (تود) وهو الأصح ، فاسم الإمبراطورة في الرواية العربية (تود) الذي يمكن أن يكون ترخيماً « لتيودورا » .

انظر : المطرب ص ١٤٤ ، والنسخ ج ١ ص ٤٤٣ ، والإسلام في المغرب والأندلس صفحة ١١٣ .

(٢) القود : معظم شعر الرأس مما يلي الأذن .

(٣) الشهب والشبهة : بياض فيه سواد .

(٤) انظر هذه الأبيات في : المطرب ص ١٤٤ والنسخ ج ١ صفحة ٤٣ .

وحسنت له يوماً خضاب شعره فقال :

بكرتُ تحسن لى سواد خضابى      فكأن ذاك أعادنى لشبابى  
ما الشيب عندى والخضاب لو اصف      إلا كشمس جللت بضباب  
تخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا      فيصير ما سترت به لذهاب  
لا تنكرى وضح المشيب فاعما      هو زهرة الأفهام والألباب  
فلدى ما تهوين من شأن الصبا      وطلاوة<sup>(١)</sup> الأخلاق والآداب<sup>(٢)</sup>

وذكروا أن الإمبراطورة أتت مرة لزيارة الشاعر فى القصر الذى أعد لضيفاته ،  
واصطحبت معها ابنها الأمير ميشيل ، وكان شاباً يحب الشراب فأحضر معه نبئداً .  
فنظم الشاعر فى ذلك قصيدة يقول فيها :

وأغيدَ لىنَ الأطراف رخص<sup>(٣)</sup>      كحيل الطرف ذى عنق طويل  
ترى ماء الشباب بوجتية      يلوح كرونق السيف الصقيل  
من أبناء الغطارف<sup>(٤)</sup> قيصرى<sup>(٥)</sup> المعمومة حين يُنسبُ والخوول  
كانَ أديمه نصفاً بنصف      من الذهب الدلاص أو الودبل<sup>(٥)</sup>  
وربتما أكرُرُ فيه طَرَفُ      فأحسب أنه من عظم فيل  
على قد سواء لا قصير      فتحقره ولا هو بالطويل  
ولكنْ بين ذلك فى اعتدال      كفصن البان فى قرب المسيل  
يخنُ إلى مطَرَفًا لشكى      ويكثر لى الزيارة بالأصيل

( ١ ) الطلاوة : الحسن والبهجة والقبول .

( ٢ ) انظر هذه الأبيات فى : المطرب ص ١٤٦ .

( ٣ ) الأغيد : الناعم المثنى ، والرخص : اللين .

( ٤ ) الغطارف : جمع غطريف وهو السيد الشريف والسخي السرى .

( ٥ ) الدلاص : البراق . والوديل : جمع وذيلة وهى القطعة من الفضة المجلوة .

أتى يوماً إلى بزق خمر شمول الريح كالمسك الفتيل<sup>(١)</sup>  
 ليشربها معي وبيت عندي فيثب بيننا ود الخليل  
 وجاءت أمه معه فكانا كأم الحشف والرشاء<sup>(٢)</sup> الكحيل  
 توصيني به وتقول أخشى عليه البرد في الليل الطويل  
 فقلت حماقة مني ونوكاً<sup>(٣)</sup> فديتك لست من أهل الشمول  
 فأبته غرة سبحان ربى لو انى كنت من أهل العقول<sup>(٤)</sup>

ثم عاد الغزال من رحلته ، ورأى زرياباً يتمتع بنفوذ هائل عند الأمير عبد الرحمن الأوسط في قرطبة والأندلس جميعاً ؛ فهجاه . ووصل ذلك الهجاء إلى مسامع الأمير - وكان كما هو معروف يؤثر زرياباً ويخصه بالعطف - فقرر نفي الغزال . وقد شفع له بعض أهل الخير ، فعفا عنه الأمير ، غير أن الغزال ضاق بالحياة في الأندلس بعد هذا . ورحل إلى المشرق . وهناك التقى بتلاميذ أبي نواس - وكان ذلك بعد موت الشاعر المشرق بقليل - فراع الغزال مارأى من تهوين تلاميذ أبي نواس من شأن شعراء الأندلس ؛ فتركهم حتى أخذوا في الحديث عن أبي نواس ، ثم قال لهم : من يحفظ منكم قوله :  
 ولا رأيت الشرِّبَ أكدت سماؤهم تأبَّطت زِقَى واحتبست عنائى  
 وذكر لهم أبيات تلك المقطوعة الخمرية الرائعة . فأعجبوا بالشعر كثيراً وذهبوا في مدحه كل مذهب ، معتقدين أنه - كما أوهمهم - شعر أبي نواس .

فلما أفرطوا ، قال لهم : خفضوا عليكم فإنه لى . فأنكروا ذلك . فأنشدهم قصيدته التى مطلعها :

(١) الفتيل : كالفيت .

(٢) الحشف : ولد الظبي . والرشاء ، الظبي إذا قوى ومشى مع أمه .

(٣) النوك : الحق .

(٤) انظر هذه القصيدة في كتاب ليث برونسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٠٨-١١٠ .

وقد أورد ابن سعيد في المغرب بعض أبياتها ج ٢ ص ٥٨ .

تداركتُ في شرب النبيذ خطائي<sup>(١)</sup> وفارقت فيه شيمتي وحياتي

وهي القصيدة التي منها الأبيات التي حسبوها لأبي نواس . فلما أتمها خجلوا  
وافترقوا عنه .

وقد أوردنا هذه النوادر جميعاً لنبرز ملامح شخصية الغزال . وقد تكون بعض هذه  
النوادر من نسج خيال القصاصين ، ولكنها مع ذلك تدل على ما عرف به الشاعر من  
صفات ، وما اشتهرت به شخصيته من معالم . وهكذا نفهم أن الرجل كان ذكياً  
لبقاً . خفيف الظل ، على كثير من السخرية التي تصل أحياناً إلى عدم المبالاة .

وبقي الغزال بالمشرف مدة ، ثم حن إلى الأندلس ، فعاد إلى وطنه ، وقد أقلم  
عن الشراب ومال إلى الزهد وقول الشعر فيه .

وظل كذلك حتى مات سنة ٢٥٥ هـ تقريباً ، في عهد الأمير محمد ، بعد أن عُمر  
وقارب المائة<sup>(٢)</sup> .

وشعر الغزال يسير في الاتجاه المحدث الذي نقله عباس بن ناصح إلى الأندلس .  
وقد عرفنا أن الغزال كان في أيام نشأته الأدبية من المتردين على مجالس ابن ناصح ،  
التي كانت تعقد في قرطبة ويتناشد فيها الشعراء ويتناقدون ، وعرفنا أيضاً أن الغزال  
كان في تلك النشأة الأدبية بصيراً بالشعر حتى لقد انتقد بعض ما كان يقوله ابن ناصح  
في مواجهته .

ويمكن تقسيم حياة الغزال الشعرية إلى ثلاث مراحل : الأولى . مرحلة الشباب

( ١ ) الخطاء ، كالمخطأ : ضد الصواب .

( ٢ ) جاء في بغية الملتبس وجذوة المقتبس أنه مات سنة ٢٥٠ عن ٩٤ سنة . ولكن الغزال نفسه قد صرح

في بعض شعره أنه عاش ٩٩ سنة ، فإذا أضفنا هذه السنوات إلى تاريخ ميلاده كانت وفاته سنة ٢٥٥ .

انظر أبيات الغزال التونية التي أولها : « ألت ترى أن الزمان طواني » .

والتزق . وتغلب على شعره في تلك المرحلة موضوعات الحمر والغزل والمجون والفكاهة .  
وقد مرت تماذج عديدة من شعر هذه المرحلة المعالج لتلك الموضوعات .

والمرحلة الثانية ، مرحلة الكِبَر والتعقل ، وتغلب على شعره في تلك المرحلة موضوعات النقد الاجتماعي والأخلاقي ، الذي ينبىء عن عمق وعى وقوة إدراك لعيوب الناس ونقائص الحياة ، مما وصل بالشاعر إلى التشبع بروح السخرية وقوة الإحساس بالمرارة ، بل إلى التشاؤم الذي حال كثيراً بين عيني الرجل وما في الناس والحياة من خير .

ولعل مما يمثل هذه المرحلة من حياة الغزال الشعرية ، قوله في علاقات الناس القائمة — في نظر الشاعر — على الختل والعداوة وانتهاز الفرص ونيل القوى من الضعيف :

لا ومنَ أعملَ المطايا إليه كلُّ من ترتجى إليه نصيباً  
ما أرى ها هنا من الناس إلا ثعلباً يطلب الدجاج وذيباً  
أو شبيهاً بالقط ألقى بعينيه إلى فارة يريد الوثوباً<sup>(١)</sup>  
وقوله في المرأة وكونها — في رأيه — كالسراج أو الخان أو الثمرة التي تذو لأول آكل :  
يا راجياً ودَّ الغواني ضلّةً ففؤاده كلفاً بهن موكلاً  
لا تكلفن بوصلهن فإنما الكلف المحب لهن من لا يعقل  
إن النساء لكالسروج حقيقةً فالسرج سرجك ريثما لا تنزل  
فإذا نزلت فإن غيرك نازل ذاك المكان وفاعل ما تفعل  
أو منزل المجتاز أصبح غادياً عنه وينزل بعده من ينزل  
أو كالثمار مباحة أغصانها تذو لأول من يمرُّ فيأكل<sup>(٢)</sup>  
وقوله في الذي يولّى أمراً يحتاج إلى أمانة لأنه في ظاهره أمين ، بينما هو ككل الناس — في رأى الشاعر — معتدٍ بخائن مفسد :

(١) وردت هذه الأبيات في : نفح الطيب ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢) وردت هذه الأبيات في : المطرب لابن دحية ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

يقول لى القاضى معاذٌ مشاوراً      ولتى امرأ فيما يرى من ذوى الفضل  
فدينك ماذا تحسب المرء صانعاً      فقلتُ وماذا يصنع الدُّبُّ بالنحل  
يدق خلاياها ويأكل شهدها      ويترك للذبان ما كان من فضل<sup>(١)</sup>

ثم قوله فى الناس، وانطباعهم جميعاً - فى رأيه - على الإثم ، وغرقهم فى الذنوب ،  
لا فرق بين واحد وآخر ، إلا أن هذا مفضوح وذاك مستور :

إذا أُخبرتَ عن رجل برىء      من الآفات ظاهره صحيحُ  
فسلهم عنه : هل هو آدمى ؟      فإن قالوا نعم فالقول ريح  
ولكنْ بعضنا أهل استار      وعند الله أجمعنا جريح  
ومن إنعام خالقنا علينا      بأنْ ذنوبنا ليست تفوح  
فلو فاحت لأصبحنا هروباً      فرادى بال فلا ما نستريح  
وضاق بكل متحل صلاحاً      لِنَتْنِ ذنوبه البلدُ الفسيح<sup>(٢)</sup>  
وهذه النقدرات الاجتماعية والأخلاقية تعتبر من التجديد الموضوعى الذى طرق به  
الغزال موضوعات جديدة ، لم يتجه إليها الشعراء قبله إلا على سبيل اللمحات العابرة .  
أما المرحلة الثالثة ، فهى مرحلة الضعف والزهد . وفى هذه المرحلة تغلب على شعر  
الغزال موضوعات الشكوى من تقدم السن ، والحديث عن اليأس الذى أخذ يدب فى  
كل شئ منه حتى الاسم ، ثم ذكر الزهد فى الدنيا ومتاعها الفانى ، والموت والقبر  
والنهاية المحتومة . ومن شعر هذه المرحلة قول الغزال :

ألست ترى أن الزمان طوانى      وبدلَ خلقتى كلَّه وبرانى  
تحيفنى عضواً فعضواً فلم يدع      سوى اسمى صحيحاً وحده ولسانى

(١) وردت هذه الأبيات فى : قصاة قرطبة ص ٨٦ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى : جذوة المقتبس ص ٤٥٢ . والنتن : ضد الفوح .



ولو كانت الأسماء يدخلها البِلَى      لقد بلى اسمي لامتداد زماني  
ومالَى لا أبلى لتسعين حِجَّة      وسبع أتت من بعدها ستان  
إذا عنَّ لي شخصٌ تخيلُ دونه      شبهُ ضبابٍ أو شبه دخان  
فيا راغباً في العيش إن كنت عاقلاً      فلا وعظ إلا دون لحظ عيان<sup>(١)</sup>  
وقوله :

أرى أهل اليسار إذا توفوا      بنوا تلك المقابر بالصخور  
أبوا إلا مباهاة وفخراً      على الفقراء حتى في القبور  
رضيتُ بمن تأتق في بناء      فبالغ فيا تصريف الدهور  
ألمَّا يبصروا ما خربته اندْهورُ      من المدائن والقصور  
لعمر أبيهم لو أبصروهم      لما عُرِف الغنى من الفقر  
ولا عُرِف العبيد من الموالى      ولا عُرِف الإناث من الذكور  
ولا من كان يلبس ثوب صوف      من البدن المباشر للحريز  
إذا أكلَ الثرى هذا وهذا      فما فضلُ الغنى على الفقير<sup>(٢)</sup>

هذا ، وبرغم سير شعر الغزال في الاتجاه المحدث ، بما اشتهر به هذا الاتجاه من موضوعات ، وبما عرف له من أسلوب ؛ قد كانت لشعر هذا الشاعر الأندلسي خصائص فنية واضحة ، تميزه عن شعر غيره ممن ساروا في هذا الاتجاه من مشاركة وأندلسيين . وأهم تلك الخصائص : الاتجاه إلى القص والحوار ، والميل إلى التحليل والتعليل ، والتشبع بروح السخرية والنقد ، وإبراد الفكرة المبتكرة والصورة الجديدة من حين إلى حين ، واتضح النظرة الحكيمة واللمحة الفلسفية ؛ مما لا يُعرف كثيراً في شعر الأندلسيين .

(١) وردت هذه الأبيات في : المطرب ص ١٥٠ .

(٢) وردت هذه الأبيات في : تقع الطيب ج ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

وقد سبقت نماذج من شعر الغزال تؤكد اتجاهه إلى القصص والحوار ، كآبياته في وصف الرحلة البحرية وما كان فيها من هياج للبحر ، وكبعض قطعه التي صور بها ما كان بينه وبين الإمبراطورة البيزنطية . ولم تكن طبيعة تلك الموضوعات المشتعلة على أحداث ، هي التي فرضت على الشاعر هذا الاتجاه القصصي ؛ وإنما كان اتجاه الشاعر وميله إلى طريقة القص حتى في الموضوعات التي لا تفرض هذه الطريقة . ومن ذلك أبيات له يعالج فيها مشكلة زواج الفتاة من شيخ غني أو شاب فقير ، وفيها يقول الغزال بأسلوبه القصصي :

وخيرها أبوها بين شيخ كثير المال أو حدث فقير  
فقلت خُطِّتَا خُسف وما إن أرى من خطوة للمستخير  
ولكن إن عزمتُ فكل شيء أحبُّ إلىَّ من وجه الكبير  
لأن المرء بعد الفقر يُرى وهذا لا يعود إلى صغير<sup>(١)</sup>

بل إن الغزال يؤثر هذا الأسلوب القصصي حتى في بعض الهجاء ، ومن ذلك قوله فيمن اسمه أبو حازم :

سألتُ في النوم أبي آدمًا فقلت والقلب به وامقُ  
ابنك بالله أبو حازم ؟ صلى عليك الملكُ والخالقُ  
فقال لي : إن كان مني ومن نسلِي ، فحواً أمكم طالق<sup>(٢)</sup>

ومن لمحات الغزال الحكمية وصوره الجديدة — غير ماتضمنته النماذج السابقة — قوله :

قالت أجبك قلتُ كاذبةٌ غُرِّيَ بذا من ليس ينتقدُ

(١) وردت هذه الأبيات في : جذوة المقتبس ص ٣٥٢ .

(٢) وردت هذه الأبيات في : نفع الطيب ج ١ ص ٤٤٢ .

هذا كلام لست أقبله الشيخ ليس يحبه أحدُ  
سيان قولك ذا وقولك إنَّ الريح نعقدها فتنعقدُ  
أو أن تقول النار باردة أو أن تقول الماء يتقد<sup>(١)</sup>

فقوله : « الشيخ ليس يحبه أحد » لمحة حكيمية فيها صدق التجربة وبساطة التعبير .

وقوله : « الريح نعقدها فتنعقد » صورة فيها الابتكار والدقة وتحليق الخيال .

ومن هذه الصورة المبتكرة الدقيقة كذلك قوله :

ولو كانت الأسماء يدخلها البلى لقد بلى اسمى لامتداد زمانى

فتسرب البلى إلى الاسم ، صورة فريدة لانعرف أحداً سبق بها هذا الشاعر الأندلسى

المخلق .

وفى مثل هذه الصورة الجديدة والأفكار المبتكرة — بالإضافة إلى إثارة أسلوب القصص — يرى بوضوح اتجاه الغزال كأكثر الشعراء الأندلسيين ، إلى التجويد الفنى .

ولسنا بعد فى حاجة إلى إيراد أمثلة جديدة على شيوع روح السخرية فى شعر الغزال ؛ فكل شعره مشبع بتلك الروح ، التى سيطرت على الرجل فى كل مراحل حياته تقريباً ، وإن أخذت مظاهر مختلفة تبعاً لمراحل عمر الرجل المديد ؛ إذ كانت فى أول مرحلة تأخذ مظهر الاستخفاف والتظرف ، وفى ثانى مرحلة تأخذ مظهر المرارة والنقد ، وفى ثالث مرحلة تأخذ مظهر الاشتزاز والزهد .

وأخيراً قد خلّف الغزال شعراً كثيراً جمعه ديواناً ورتبه فى الفترة التالية ؛ شاعرٌ يسمى حبيب بن أحمد الشطيجيرى <sup>(٢)</sup> . ولكن هذا الديوان قد ضاع فيما ضاع

(١) وردت هذه الأبيات فى المصدر السابق ص ٤٤٣ .

(٢) انظر : جذوة المقتبس ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٣٥٢ .

من تراث الأندلس ، ولم يبق من شعر هذا الشاعر الأندلسي الكبير إلا بعض قصائد ومقطوعات متناثرة في الكتب التي ترجمت له ، أو عرضت لذكره ، أولشيء من شعره بمناسبة تاريخية أو أدبية <sup>(١)</sup> .

والذي يدل عليه هذا الباقي من شعر الغزال ، أنه كان من ألمع شعراء فترة صراع الإمارة ، بل كان من أكبر شعراء الأندلس في كل الفترات ؛ وذلك لأصائله الشعرية ، وخصائصه الفنية ، وسبقه إلى موضوعات النقد الاجتماعي والأخلاقي ، واتضح بعض النظرات الحكمية واللمحات الفلسفية عنده ، وتصوير شعره لعصره وحياته إلى حد كبير .

#### سعيد بن جودي <sup>(٢)</sup> :

هو سعيد بن سليمان بن جودي السعدي . يتصل نسبه بأسرة تعرف بالرياسة وتنحدر من قبيلة هوازن . ولسنا نعرف شيئاً عن مولده ونشأته الأولى ، ولكننا نعرف أنه شب على الفروسية والميل إلى الأدب . وكان من زعماء العروبة في غرناطة ، أثناء الحركة العنصرية التي كانت بين العرب والمولدين في عهد الأمير عبد الله . وقد كان سعيد أولاً من أعوان الزعيم سوار ، الذي كان على رأس العرب في غرناطة . وخاض ابن جودي بعض المعارك ضد ابن حفصون حتى وقع مرة في الأسر وسجن حيناً . ولكنه تمكن من الخلاص ، وواصل الكفاح ضد مناوئيه . فلما قُتل سوار ، اختار العرب سعيداً زعيماً لهم ، وخاطبوا الأمير عبد الله يسألونه الموافقة على رياسة سعيد لهم فوافق . وكان سعيد شجاعاً متحمساً ، فأعلى كلمة الغرناطيين من ذوي الأصول العربية ، وناصرهم على أعدائهم المولدين ، وحارب ابن حفصون وأحرز عليه انتصارات ، حتى هابه هذا

(١) انظر المراجع الواردة في هامش أول الحديث عن الغزال . وانظر المقدم الفريد لابن عبد ربه والبيان المغرب لابن عذاري .

(٢) انظر ترجمته وبعض شعره وأخباره في : المقتبس لابن حيان ، الجزء الذي نشره ملشور أنطونيا ، ص ٢٩ وما بعدها .

المتنرد الذى لم يهب حكومة قرطبة ، وحتى أصبح سيف العروبة والإسلام المسلول على الأعداء والمناوئين فى هذه المنطقة من جنوب الأندلس .

وقد افتن أعوان سعيد بزعيمهم ، حتى عدوا له خصالا ، قالوا إنها لم تجتمع لسواه ؛ وتلك الخصال هى : الجود والشجاعة والفروسية والشعر والخطابة والشدة والطعن والرماية . غير أنهم كانوا يأخذون عليه ولعه بالنساء . ولعل ذلك مما يكمل صورته كفارس .

وقد خلف سعيد بن جردى شعراً يصوره محارباً قوياً شديداً البأس فى الحرب ، ويمثله محباً لين العريكة فى الحب . أى أن شعره يصوره كفارس بالمعنى التقليدى للفارس .

فمما يصور قوته وشدة بأسه ، قوله :

الدرع قد صارت شعارى فما أبسط حاشاها لتهجاعى  
والسيف إن قصّره صانع طوّله يومَ الوغى باعى  
وما كُنيتى لى بمستقصِر إذا دعانى للقاء داعى  
هذا الذى أسعى له جاهداً كل امرئ فى شأنه ساعى<sup>(١)</sup>

ومن ذلك الضرب أيضاً ، قوله وهو فى أسرابن حفصون :

خليلى صبراً راحة الحرّ فى الصبر ولاشئ مثل الصبر فى الكوبِ للحر  
فلا تياساً من فرحة بعد ترحه وأن تنعما باليسر من بعد ما عسر  
فكم من أسير كان فى القيد موثقاً فأطلقه الرحمتن من حلق الأسر  
لئن كنت مأخوذاً أسيراً وكنتما فليس على حرب ولكن على غدر  
ولو كنت أخشى بعض ما قد أصابنى حمتنى أطراف الردينية السمر

(١) انظر هذه الأبيات فى : المقتبس لابن حيّان ص ١٢٤ .

فقد علم الفرسانُ أنى كميها      وفارسها المقدام فى ساعة الذعر  
فيا ظاعناً أبلغ سلامى تحيةً      إلى والدئى الهائمين لدى ذكرى  
وأدّ إلى عُرسى السلام وقل لها      عليك تحياتى إلى موقف الحشر  
بهمك ألتى خالئى يوم موقى      وكربك أمضى لى من القتل والأمر  
وإن لم يكن قبرٌ فأحسنُ موطنًا      من القبر للفتيان حوصلة النسر<sup>(١)</sup>

أما شعره الذى يصور ضعفه فى حبه ولين عريكته فى معارك الغرام ، فمنه قوله فى مطربة اسمها جيحان ، كان قد سمعها فهم بها دون أن يراها :

سمعى أبى أن يكون الروح فى بدنى      فاعتاض قلبى منه لوعة الحزن  
أعطيتُ جيحان روحى عن تذكُّرها      هذا ، ولم أرَها يوماً ولم تَرَنى  
فقل لجيحان : يا روحى ويا أملى      استوصِ خيراً بروح زال عن بدنى  
كأننى واسمها والدمع منكسبٌ      من مقلتى ، راهبٌ صلى إلى وثن<sup>(٢)</sup>

ومن ذلك أيضاً قوله فى جارية أعرضت عنه ورمت بطرفها إلى الأرض خجلاً :  
أماثلةً الألفاظ عنّا إلى الأرضِ      أهذا الذى تبدين ويحك من بغضى ؟  
فإن كان بغضاً لستُ والله أهله      ووجهى بذاك اللحظ أولى من الأرض<sup>(٣)</sup>  
ومما يصور شخصيته بجانبها قوله :

لا شئء أملح من ساق على عنتى      ومن تناقل كاسات على طبق  
ومن مواصلة من بعد معتبة      ومن مُراسلة الأجاب بالحدق  
جريتُ جرتى جَموح فى الصبا طلقا      وما خرجتُ لصرف الدهر فى مَلق

(١) انظر هذه الأبيات فى : المقتبس لابن حيان ص ١٢٩ .

(٢) انظر هذه الأبيات فى المصدر السابق ١٢٤ .

(٣) انظر هذه الأبيات فى : المقتبس ص ١٢٥ .

ولا انثنيْتُ لداعى الموت يوم وغى كما انثنيْتُ وحَبَلُ الحب في عُنَى<sup>(١)</sup>

وقد انتهت حياة سعيد بن جودى نهاية محزنة ؛ حيث قتله بعض حاسديه غدرًا سنة ٢٨٤ هـ . ولكيلا يؤخذوا بجريمة قتله ، ادعوا أنه تمحى أمير قرطبة عبد الله بن محمد ، وادعوا أنه قال فيه هذه الأبيات :

قلْ لعبد الله يجدُّد في الحربِ      نَجَمَ الثائرُ من وادى القصب  
يا بنى نمرَوانَ خلَّوْا ملكنا      إنما الملك لأبناء العرب  
قربوا الورْدَ<sup>(٢)</sup> المحلى بالذهب      واسرجوه إنَّ نجمي قد غلب<sup>(٣)</sup>

هذا شعر ابن جودى يسير في الاتجاه المحافظ ؛ فهو في موضوعاته يكاد ينحصر في الفخر والحماسة والغزل ، وهو في أسلوبه يميل إلى الأسلوب التقليدى في الشكل والمضمون جميعاً . ويميل هذا الشاعر إلى ذلك الاتجاه له ما يفسره من نشأته وطبيعته وسائر ظروفه ؛ فالرجل - كما عرفنا - قد نشأ على التعصب للعروبة . وعاش زعيمًا من زعمائها ، وفارسًا من فرسانها ، وكان في أيامها من أبرز المنافحين عن أمجادها ؛ وكل هذا كان يربطه بالمحافظة على القديم ، ويشده إلى ماضى العرب في كل شيء ، ومن هنا جاء ميله إلى الاتجاه الشعرى المحافظ .

ومع تلك المحافظة في شعر سعيد بن جودى تتضح لفنه سماته ، وتظهر في شعره شخصيته . فهو يميل إلى الغنائية المرفهة ؛ فيؤثر المقطوعات ، ويختار الألفاظ ، ويصقل التراكيب . ويملأ حنايا شعره بالعاطفة ، حتى نرى كل ما بين أيدينا من شعره يصلح للتلحين والغناء ، ويكاد يترنم به قارئه ويغنيه منشده .

(١) انظر هذه الأبيات في المصدر السابق ص ١٢٥ .

(٢) الورْد من الخليل ، ما بين الكيت والأشقر .

(٣) انظر هذه الأبيات في المقتبس ص ٣٠ .

## ثانياً : النثر :

يمكن القول بأن النثر في فترة صراع الإمارة قد نال تقدماً وأصاب تطوراً . أما تقدمه فيتضح في تلك الكثرة من الأدباء النثرين الذين ازدهمت بهم تلك الفترة ، والذين حفظت أسماء كثير منهم كتب التاريخ والتراجم ، حتى لقد عُد لكل أمير من أمراء تلك الفترة عدد من الكتاب أقله اثنان<sup>(١)</sup> . فكان من كتاب الأمير عبد الرحمن الأوسط : عبد الكريم بن عبد الواحد ، وسفيان بن عبد ربه ، وعيسى بن شهيد . وكان من كتاب الأمير عبد الله بن محمد : عبد الله بن محمد الزجالي ، وعبد الله بن محمد بن أبي عبده وموسى بن زياد<sup>(٢)</sup> .

بل إن الاشتغال بالكتابة لم يعد وقفاً على هؤلاء المسلمين ذوي الأبوة العربية ، ولكنه تعداهم إلى بعض المسيحيين ذوي الأصول الإسبانية ، مثل « قومس بن أنتنيا » الذي عمل حيناً في الكتابة للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، واضطر أخيراً إلى الإسلام حتى ينسجم وضعه ككاتب للأمير الأندلسي المسلم<sup>(٣)</sup> .

أما تطور النثر في تلك الفترة ، فأهم مظاهره تأثره أولاً بأسلوب عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشرق ، الذي لمع في أواخر العصر الأموي والذي كان أول من أطال الرسائل وأكثر من التحميدات . ثم تأثره ثانياً بأسلوب الجاحظ الذي تألق في العصر العباسي وكان صاحب مدرسة أسلوبية متميزة ، كان من أهم سماتها : الميل إلى الجمل القصار ، وإجادة استخدام حروف الجر متتابعة متغايرة في دقة وحسن استعمال ، ثم أداء المعنى

(١) راجع : البيان المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ١٢١ ، ١٤١ ، ١٧٠ ، ١٧٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) انظر : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٨٢ ، ٨٣ .



الواحد بعدة جمل ، تبدو في الظاهر تكراراً ، ولكنها في الواقع تجسيم للمعنى وتفنن في إبرازه <sup>(١)</sup> .

وليس هذا التطور في النثر الأندلسي خلال فترة صراع الإمارة بصعب التفسير ؛ بعد أن عرفنا ما كان لتلك الفترة من وثبة ثقافية ، من شأنها أن تثب بالأدب ، وبعد أن عرفنا ما كان في تلك الفترة أيضاً من نقل الكثير من آثار الأدباء المشاركة إلى الأندلس ، على يد أبي اليسر الرياضى وغيره <sup>(٢)</sup> .

وقد كان الجاحظ بخاصة ذا شهرة لدى الأندلسيين في تلك الفترة ، وقد وصلت بعض كتبه إليهم في حياته ، ككتاب التربيع والتدوير ، وكتاب البيان والتبيين . كما كان يقصده بعض الأندلسيين للتلمذة عليه ؛ حتى لقد امتدت تلمذة بعضهم عليه عشرين سنة <sup>(٣)</sup> .

وبعد فهذه نماذج من ثمر فترة صراع الإمارة ، نوردها لتبين عليها ماتقدم من أحكام . فمن الخطب خطبة ألفها الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بعد أن تم دفن والده الحكمم الربضى ، وبعد أن خلفه الأوسط في الإمارة . وفي تلك الخطبة لاتخفى تأثيرات عبد الحميد ؛ فهي ذات مقدمة مسهبة وتحميد مطنب . قال عبد الرحمن : « الحمد لله الذى جعل الموت حتماً من قضائه ، وعزماً من أمره ، وأجرى الأمور على مشيئته ؛ فاستأثر بالملكوت والبقاء ، وأذل خلقه فما [ لهم نجاة من ] الفناء <sup>(٤)</sup> تبارك اسمه ، وتعالى جده . وصلى الله على نبيه ورسوله وسلم تسليماً . وكان مصابنا

( ١ ) اقرأ الرسالتين الواردتين في آخر هذا الحديث وأولاهما قد وجهها الأمير محمد إلى عبد الملك بن أمية ، وثانيهما قد كتبها وليد بن عبد الرحمن بن غانم إلى الأمير المذكور .

( ٢ ) انظر الفقرة الخاصة بوثبة الثقافة في أول هذا الفصل .

( ٣ ) انظر : معجم الأدباء ج ١٦ ص ١٠٤ .

( ٤ ) في الأصل : فا الفناء . وقد أضعفت ما يتضح به المعنى ، ويتفق مع السياق .

بالإمام رحمه الله ، مما جلت به المصيبة ، وعظمت به الرزية ، فعند الله نحسبه ، وإياه نسأل إلهام الصبر ، وإليه نرغب في كمال الأجر والذخر. و [قد] عهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم ، ولستأمن يخالف عهده ، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله»<sup>(١)</sup>.

ومن الرسائل رسالة بعث بها الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، إلى عبد الملك ابن أمية ، وكان قد اختاره الأمير كاتباً له . وفي تلك الرسالة يظهر تأثير الجاحظ ؛ ففيها تفنن في استخدام حروف الجر ، وإيرادها في تقابل بارع . وفيها كذلك تلك الجمل القصار المتتابعة في غير تكرار أو إملال . يقول الأمير محمد في رسالته : «قد فهمنا عنك ، ولم ذات ما أتينا عن جهل بك ، لكن اصطناعاً لك ، وعائدة عليك . وقد أبجنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكتاب ، فتخير منهم من تثق به وتعتمد عليه . ونحن نعينك على أمرك بتفقد كتبنا والإصلاح عليك ، إلى أن تركب الطريقة ، وتبصر الخدمة ، إن شاء الله تعالى»<sup>(٢)</sup>.

ومن الرسائل كذلك ، رسالة لوليد بن عبد الرحمن بن غانم ، بعث بها إلى الأمير محمد يطلب منه — في صورة مستورة — أن يقربه ويسند إليه بعض المناصب الكبيرة . وفي تلك الرسالة يقول وليد : «عظمت نعمة الأمير — أبقاه الله — عن الشكر ، وجلت أياديه عن النشر ، فمتى رمتُ شكر أدنى ما غمرني ، وحمد أيسر ما اشتمل على ، تكاءدني<sup>(٣)</sup> الشكر ، وعجز بي الجهد . ولست بمؤمل مع ذلك عن الاستفراغ في القول ، والاجتهاد في العمل ، إذ لم أرهما يدوران إلا على نعمة أزلفت ، ويقتصران إلا على زيادة انتظرت . وأنا بهما غيم ، وعليهما معول . والله الناقل لعباده ، بطاعتهم له ،

(١) اقرأ هذه الخطبة في : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) انظر هذه الرسالة في : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) تكاءدني : شق على .

وشكرهم أياديه ، من دار الشقوة إلى دار السعادة ، ومن نصّب العاجلة إلى راحة الآجلة «<sup>(١)</sup> ومن التوقيعات ، وما رد به الأمير على الرسالة السابقة ، حيث كتب : « إن الله شاكر يحب الشاكرين . وقد ناديت فأسمعت . ولكل أجل كتاب »<sup>(٢)</sup> .

ومن المحاورات ، ما كان بين الأمير عبد الله ومولى من مواليه ، حيث اعتذر المولى عن خطأ كان منه ، فقال له الأمير : « إن مخائل الأمور لتدل على خلاف قولك ، وتنبئ عن باطل تنصلك ، ولو أقررت بذنبك ، واستغفرت لجرمك ، لكان أجمل بك ، وأسدل لستر العفو عليك » . فقال المولى : « قد اشتمل الذنب علىّ ، وحق الخطاء بيّ ، وإنما أنا بشر ، وما يقوم لي عذر » . فقال الأمير : « مهلا عليك ريداً بك . تقدمت لك خدمة ، وتأخرت لك توبة ، وما للذنب بينهما مدخل . وقد وسعتك الغفران »<sup>(٣)</sup> . وليس يخفى ما في هذه النماذج جميعاً من السمات المحدثة ، التي لم تكن تبدو في نماذج الفترتين السابقتين ؛ فهنا نرى مراعاة لقيم جمالية ، وقصداً إلى محسنات أسلوبية ؛ تبدو حيناً في التقابل بين الكلمات والجمل ، وحيناً في الازدواج بين الألفاظ والتراكيب ، كما تبدو أحياناً في هذا السجع المقبول غير المتكلف ، والتعبير المصقول غير المرتجل . هذا بالإضافة إلى كثرة التحميدات والجمل الدعائية والعناية بالمقدمات ، وما إلى ذلك مما أدخله على النثر العربي أدباء متأثرون بآداب غير عربية

وهكذا لم يعد النثر الأندلسي في تلك الفترة كما كان قبل ذلك نثراً بسيطاً ذا سمات عربية خالصة ، وإنما أصبح نثراً فنياً تنضح فيه تلك المؤثرات التي أصابت مصدره الأصلي في المشرق ، حين اتصل النثر هناك بتقاليد فنية أجنبية ، أهمها التقاليد الفارسية . على أن النثر الأندلسي برغم تقدمه وتطوره في تلك الفترة ، قد ظل مقصوراً على هذا النوع الخالص ، ولم يتعد ذلك إلى النوع التأليفي الذي سيظهر في الفترة التالية .

(١) اقرأ هذه الرسالة في : أخبار مجموعة ص ١٤٨ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) اقرأ هذه المحاورة وسببها في : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٢٣٠ .